شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي

وموقفه من الاستعمار البريطاني من خلال أعماله

دراسة تحليلية

بحث جامعي

لنيل شهادة ما قبل الدكتوراه

تقديم

معراج أحمد

تحت إشراف

البروفيسور سيد إحسان الرحمن

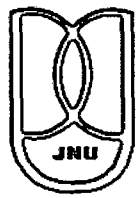

مركز الدراسات العربية ولاإفريقية
مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة
جامعة جواهر لال نهرو
نيودلهي

2005

مركز الدراسات العربية و الأفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi-110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067

DATE: 21/07/2005

DECLARATION

I declare that the material in this Dissertation entitled **"Shaikh Al-Hind Mahmood Al-Hasan Al-Deobandi Wa Mauqifuhu Min Al-Iste'mar Al-biritani Min Khilale Aa'malihi: Dirasah Tahliliyah"** (Shaikh Al-Hind Mahmood Al-Hasan Al-Deobandi and His stand on British Imperialism through his works: An Analytical Study) submitted by me is my original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other University/Institution.

Meraj Ahmad

Meraj Ahmad
Research Scholar

Prof. S. A. Rahman
(SUPERVISOR)
CAAS/SLL&CS/JNU

Prof. S.A. Rahman
(CHAIRPERSON)
CAAS/SLL&CS/JNU

Gram : JAYENU Tel.: 2670 4253 TELEX : 031-73167 JNU IN Fax : 91-11-2671 7525

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى

روح أبي الكريمة

و

أمي الحنون

رب ارحمهما كما ربياني صغيرا

كلمة الشكر

أحمد الله حمدا كثيرا من صميم قلبي على أنه منحني هذه الأوقات الثمينة للبحث والتحقيق ودلني على طريق مستقيم لإكمال البحث للحصول على شهادة ما قبل الدكتوراه. وبعد أشكر لجميع أستاتذتي الذين واصلوا لياليهم ونهارهم في إيقاد شعلة رغبة العلم في نفسي وبصفة خاصة شكرا جزيلا للأستاذ المشرف سيد إحسان الرحمن الذي اقترح لي هذا الموضوع للبحث، ولم يأل جهدا في إكمال هذا البحث وشرفني بآرائه القيمة السديدة وبدون مساعدته لا يمكن لي أن أكمل هذه الرسالة.

وكذلك أشكر لجميع أصدقائي الذين ساعدوني في إعداد هذه الرسالة وأخص بالذكر الأخ محمد أكرم نواز والأخ جليل الرحمن الشيخ والأخ عبدالملك والمساعد في مكتبة جمعية علماء الهند الذين ساعدوني بآرائهم الغالية واقتراحاتهم الثمينة.

معراج أحمد

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى صحبه أجمعين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين!

إن شخصا واحدا يستطيع أن يغير مجرى التاريخ ويأتي بالأعاجيب التي تأخذ الألباب. وكم حدث في التاريخ مثل هذه الأحداث. فها هو الشاه ولي الله الدهلوي يأتي في زمن عصيب. فيدرس القرآن والسنة ويأتي بفهم جديد ويحول مجرى التاريخ بعلمه وفكره. وهاهو السيد أحمد الشهيد يفتح عينه في هذه الظروف يشاهد فيها الإسلام وتعالميه وشريعته الغراء في خطر فإنه وحيد بعزمه القوي وهمته العالية بفضل مالا يستطيع أن يفعله الآخرون. فهو يقيم الحكومة الإسلامية على منهاج الكتاب والسنة على أرض الله. كذلك قيض الله سبحانه وتعالى شيخ الهند أن يكون علما من أعلام الفكر والجهاد وبطلا حرا في تحرير الوطن.

نرى كثيرا من العلماء والأبطال والزعماء السياسيين والدعاة والمصلحين الذين احتلوا مكانة مرموقة في تاريخ تحرير الهند. فمنهم من نال سمعة في مقاومة الاستعمار البريطاني في الهند. ومنهم من كسب شهرة واسعة بمجهوداتهم الجبارة في استقلال الوطن. وها هو محمود الحسن الذي أعد خطة بدقة تامة للقضاء على الحكم الإنجليزي في الهند ولإخراج الهنود من عبودية الإنجليز، فاشتهر في عامة الناس بشيخ الهند وسجل اسمه في تاريخ الهند كمؤسس لحركة "ريشمي رومال" أي "خطة الرسائل الحريرية"

كتب العديد من الباحثين والكتاب في حياته وخدماته في تحرير البلاد، ولكن معظمهم لم يتناولوا حركته ودورها في إيقاظ الوطنية في الهنود وتأثيرها على الحركات التحريرية الوطنية الأخرى. وكذلك أغمض الباحثون عن الدور الذي لعب شيخ الهند في تحقيق الوحدة بين الهنود

والمسلمين. ولم يذكروا حبه للوطن ونظريته في التعايش السلمي والتسامح الديني وقد فشلوا في إظهار رؤياه للهند المستقلة. ولأجل ذلك اخترت هذا الموضوع، وحاولت أن أشير إلى مجهوداته في مكافحة الاستعمار البريطاني وإلى نظريته عن القومية والوطنية وحبه للوطن وجهوده في توحيد المسلمين والهندوس ومحاولته في التسامح الديني والانسجام الطائفي مع تركيز خاص على حركته "ريشمي رومال" ودورها ومساهمتها في تحرير البلاد.

وعلى أية حال إنني حاولت في هذا البحث الوجيز أن أقدم أمام القراء جميع نواحي حياة شيخ الهند العلمية والسياسية حتى تتجلى عظمته ومكانته المرموقة في تحرير الوطن. ومن المناسب أن أقسم هذه الرسالة إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

أما الباب الأول فقد قسمته إلى ثلاثة فصول. وفي الفصل الأول ألقيت نظرة عابرة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة في عهد شيخ الهند.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن حياته وشخصيته مشيرا إلى الأسباب والعوامل التي جعلته بطلا حرا وقائدا سياسيا في ميدان الكفاح.

والفصل الثالث يحتوي على آثاره العلمية ومكانتها الأدبية وتأثيرها وأهميتها في الأوساط العلمية والدينية.

أما الباب الثاني فهو أيضا يشتمل على ثلاثة فصول، قد ناقشت في الفصل الأول مجهوداته الجبارة في تحقيق الوحدة الإسلامية بخصوص إيقاظ الصحوة الإسلامية في المسلمين والوعي القومي في كل المواطنين الهنود.

وفي الفصل الثاني بحثت حبه للوطن في ضوء أعماله وتوحيد صفوف

المسلمين والهندوس لاستخلاص الوطن من براثن الأجانب.

وفي الفصل الثالث تحدثت عن نظريته بخصوص العلمانية والتعايش السلمي. كذلك تحدثت عن رؤياه للهند المستقلة.

وقد قسمت الباب الثالث وهو من أهم الأبواب، إلى ثلاثة فصول، وفي الفصل الأول ألقيت الضوء على دور العلماء في مقاومة الاستعمار ومساهمتهم في تحرير البلاد بقدر من التفصيل.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن مجهودات شيخ الهند في تحرير الوطن من خلال حركاته الإصلاحية، أمثال "ثمرة التربية"، "جمعية الأنصار"، "نظارة المعارف"، و"جمعية علماء الهند".

وفي الفصل الثالث والأخير درست حركته المسماة بحركة "ريشمي رومال" (خطة الرسائل الحريرية) ودورها في إيقاظ الوطنية ومساهمتها في تحرير الوطن. دراسة تحليلية.

وربما لا يكون من المغالاة في الاعتراف بأن الموضوع الذي تناولته للبحث هو موضوع طويل وباب خاص من أبواب تاريخ تحرير الهند. وقد لا يمكن لي أن أودي حقه في هذه الرسالة الوجيزة التي لا تتجاوز مائة وعشرين صفحة، ولأن دراسة هذا الموضوع تحتاج إلى دراسة تاريخ الحركات التحريرية الوطنية كلها دراسة مقارنة. ومع ذلك قد حاولت بقدر استطاعتي أن يكون هذا العمل أقرب إلى الكمال. وليس الكمال إلا لله.

أولا وأخيرا أخص بالشكر والامتنان أستاذي البروفيسور سيد إحسان الرحمن الذي أرشدني إلى هذا الموضوع البالغ الأهمية وأشرف على مسار الرسالة بجدية واهتمام. ولم يدخر وسعا في تقديم مساعدات غالية وآراء سديدة في الوصول إلى النتائج الإيجابية. وشجعني وساعدني بين حين لآخر في إزالة العقبات والعراقيل.

فأدعو الله سبحانه وتعالى أن يمتعه بدوام الصحة والعافية، ويتيح لنا فرصة طويلة للاستفادة من علمه وفضله ونصحه وخبراته.

وهذا جهد متواضع قمت به لإعداد هذه الرسالة لنيل شهادة ماقبل الدكتوراة. وأدعو الله أن يكلله بقبول حسن، وهو العلام القدير.

معراج أحمد

٢٢٢، ماهى هوستل

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي

٢١ ـ ٧ـ ٢٠٠٥

الباب الأول

شيخ الهند محمود حسن - عصره وحياته

الفصل الأول:

الأوضاع السياسية والاجتماعية في عهد شيخ الهند

الفصل الثاني:

شيخ الهند محمود حسن الديوبندي - حياته وشخصيته

الفصل الثالث:

شيخ الهند وآثاره العلمية ومكانتها

الفصل الأول

الأوضاع السياسية والاجتماعية في عهد شيخ الهند

قبل أن نتحدث عن الأوضاع السياسية والاجتماعية في عهد شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي الذي نتكلم عنه، من الواجب علينا أن نحدد ما هو العصر الذي عاش فيه شيخ الهند ونشأ وترعرع. وكيف كانت الأحوال والظروف السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية قبل مولده. لأن روح العصر لها تأثير كبير في تكوين شخصية الإنسان.

فإن الإنسان يتأثر كثيرا بالأحوال والظروف التي يعيش فيها، ولها أهمية كبيرة في تكوين شخصيته ونفسيته فهذه الأحوال والظروف لا تتحدد إلى الحي أو الحارة فحسب، بل هي تتسع إلى الوقائع الأسرية التي يعيش فيها شخص أو يسمع عنها، فهو يسمع عن الأحداث والأمور التي مر بها أفراد الأسرة ويتأثر بها خاصة إذا كان آباؤه وأجداده قاموا بدور كبير في قلب تيار التاريخ أو تغيير مجرى البلاد السياسي والديني.

فنظرا إلى هذه الحقيقة أعتقد أن أذكر تلك الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية بقدر من التفصيل قبل مولده حتى عصره الذي هو موضوع بحثنا، وكذلك أريد أن أوضح تلك العوامل والبواعث التي جعلته قائدا سياسيا وبطلا حرا في سبيل تحرير البلاد.

ومن الواجب علينا أن نلقي أضواء على الهند وتاريخ حضارتها وثقافتها من الناحية العامة مع إلقاء الضوء على حالتها الاجتماعية والسياسية من الناحية الخاصة.

أضواء على الهند منذ دخلها الإسلام حتى عصر شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي

إن وطننا الهند هي بلاد قديمة يملك حضارة وثقافة يرجع تاريخها إلى عدة آلاف مضت من السنين، والهند ليست مجرد دولة بل هي شبه قارة وربما يطلق عليها قارة ، أي بلاد عديدة في وطن واحد، وتبلغ مساحتها ٣٢,٨٦,٢٦٣ كيلومتر مربع وتفصل جبال الهماليا شبه الجزيرة الهندية من سائر قارة آسيا.

ومن السمات الرئيسية في الهند تنوع تركيبه المجتمع، ربما تكون الهند هي الدولة التي تضم العديد من الأجناس المتنوعة في العالم، فهي تشتمل على الأجناس الرئيسية في العالم، على سبيل المثال، الأسترالي، المغولي، الأوربي، القوقازي الزنجي وكلها ممثلة في الشعب الهندي الذي تعد أساسا جنسيا مختلطا كما تعدد فيها الديانات مثل الهنوسية والمسيحية والإسلام وجماعات من السيخ والبوذية والجينز واليهودية والزراردتشة ومجموعات دينية أخرى. وكل منها تتمتع بالحرية الكاملة في أعمالها الدينية مع ثقافتها وحضارتها لأن الهند هي دولة ديمقراطية والهدف الرئيسي لها هي العلمانية، ومن خصائصها الهامة التي تميزها عن غيرها من البلدان هي الوحدة في التنوع وبالعكس.

الهند ما قبل الإسلام

كانت الهند قبل دخول الإسلام والمسلمين بلادا منقطعة ومتقطعة سياسيا واجتماعيا عن العالم الخارجي كلها، يعيش أهلها في عزلة وخلوة، ليست له علاقة مع المجتمعات الإنسانية الأخرى، وانقسم الناس في نظام الطبقات، فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة وأعظم فصلا بين طبقة وطبقة، وأشد امتهانة بشرف الإنسان من النظام الديني وكانت الهند تذوق هذه كلها منذ زمن عتيق، وقد بدأت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الفيدي(Vedic Period) بتأثير الحروف

والصنائع وتوارثها بحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها، وقبل ميلاد المسيح ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتقفت عليه البلاد، أصبح قانونا رسميا مرجعا دينيا في حياة الناس والبلاد وهو المعروف بـ "منوشاستر" Manu) (Shastra يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات شهيرة

الأول: البراهمة وهي طبقة أصحاب العلم ورجال الدين

الثاني: شتري وهي طبقة أناس الحرب والحكام

الثالث: ويش وهي طبقة رجال الزراعة والتجارة

الرابع: شودر وهي طبقة رجال الخدمات

يقول مؤلف هذا القانون: "إن القادر المطلق قد خلق البراهمة من فمه لمصلحة العالم، وخلق شتري من سواعده وويش من أفخاذه وشودر من أرجله، وكذلك مؤلف هذا القانون وزع الفرائض والواجبات على كل من الطبقات لصالح المجتمع الهندي فعلى البراهمة أمور دينية لتعلم فيدا وتقديم الرسوم والنذور للآلهة وتعاطي الصدقات، وعلى شتري الأمور السياسية كحراسة الناس والدفاع عن الوطن والحكومة والقيادة، وعلى ويش رعي السائمة والقيام بخدمتها والزراعة والتجارة وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث "فهكذا أصبحت هذه البلاد مسرحا للجميل الناضج الوثنية والقسوة الهمجية والجور الاجتماعي، ليس له مثيل في الأمم ولا نظير له في العالم.[1]

فجملة القول كانت الهند قبل دخول الإسلام متخلفة ومنقطعة عن العالم كله ولو أن بعض الهنود عرفوا شيئا من العلوم كالهندسة والنجوم والطب ولكن أكثرهم كانوا متخلفين من حيث الثقافة والحضارة، كما كانوا متخلفين في كل مجال من مجالات الحياة عامةو في مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع خاصة وظلت

الهند وجاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، لم يوجد في المجتمع الهندي العدل والمساواة وكان الناس يعانون من الشقاء والبؤس من أجل تفاوت الطبقات ومن جور الأديان وانتشار الفساد وكان المجتمع الهندي كبحر يأكل السمك الكبير فيه السمك الصغير، حتى دخل المسلمون من حيث التجار، فتغير مجرى التاريخ وانقلب تيار المجتمع الهندي، فكان دخول المسلمين في هذه البلاد نقطة الانعطاف من التخلف والتقدم، ومن الجمود إلى الحركة، ومن حيث الجور إلى العدل و المساواة ومن العبودية إلى الحرية الكاملة، فظهرت جماعة من المسلمين الذين حملوا رسالة الإسلام إلى الناس في أرض الهند ونشروا تعاليم الإسلام السمحة في كل أرجاء الهند، والمسلمون هم الذين أخرجوا أهلها من الظلمات إلى النور ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن التقاليد القديمة إلى التطور الحديث، فبدأت الهند تتقدم وتزدهر حتى طار صيتها في كل ناحية من أنحاء العالم.

قال الأستاذ أبو الحسن على الندوي في هذا الصدد، "فمن أراد أن يعرف ما نقله المسلمون إلى هذه البلاد من ثمرات الحضارة ونتاج العقول، وما أضافوا عليها من الجمال والكمال، فلينظر إلى ما كانت الهند قبل دخول المسلمين ثم يقارن بين ذلك وبين ما تجملت به بعد ما استمر الحكم الإسلامي مدة من الزمان وما هي عليه الآن.[٢]

نظرة عابرة على انتشار الإسلام في الهند

وصل الإسلام إلى الهند أو شبه القارة الهندية من ثلاثة طرق[٣] فدخل أول ما دخل الإسلام في جنوب الهند على أيدي التجار والرحالة العرب، ومن الجدير بالذكر أن العلاقة التجارية بين الهند والعرب ترجع إلى عهد عتيق، وبحيث أن التجار العرب كانوا يصدرون خيرات الهند إلى اليمن ومنها إلى بلاد الشام، وكانت هذه الأموال الهندية تباع في أسواق مصر وأوربا، فحينما حمل هؤلاء التجار المسلمون العرب أموال التجارة إلى الهند حملوا معهم دعوة الإسلام وكذلك قامت

العلاقات بين الهنود وهؤلاء التجار المسلمين على أساس المودة والصداقة، وأثرت أخلاقهم الفاضلة ومعاملاتهم العادلة في حياة القاطنين في هذه المنطقة حتى أسلم عدد غير قليل من الهنود، وهذه كانت بداية دخول الإسلام والمسلمين في الهند.

والطريق الثاني الذي دخل منه الإسلام في هذه القارة. وهي منطقة "السند" وإنما دخل المسلمون في بلاد السند وما جاورها من البلدان حينما دخلها محمد بن القاسم الثقفي في عام ٧١١م في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، فوصل محمد بن القاسم إلى دبيل.[٤] وجاء به الأسلحة بما فيها المنجيق الشهير بالعروس" عن طريق البحر وانتصر هذا الشاب الفاتح على عدوه راجه داهر" وفتح قلعة دبيل وكان السبب لهذه الحملة التاريخية عملية بعض القراصنة في بحر العرب.

وروي أن العرب كانوا يترددون إلى شري لنكا قبل ظهور الإسلام وقد استقربها عدد كبير منهم وتوفي عدد من التجار العرب وكانت هذه السلسلة متواصلة بعد ظهور الإسلام، ونساءهم كن يرجعن إلى الدول العربية وطنهن الأصلي عبر السند، فحمل القراصنة عليهن في الطريق، فاستغثن بالحجاج بن يوسف الثقفي، فلما بلغ هذا الخبر المؤلم الحجاج كتب رسالة إلى ملك السند "راجه داهر" طلبا أن يقضي على القراصنة، فأجاب راجه داهر أنه لا يقدر على القراصنة فغضب الحجاج بهذا الجواب المتغطرس، وأرسل محمد بن القاسم ليغزوالهند فهذا هو السبب الأول للحملة التاريخية على الهند.[٥]

أما السبب الثاني الهام وفقا لما كتبه العلامة سيد سليمان الندوي في كتابه "عرب وهند كي تعلقات" هو أن عصابة من البغاة العرب فرت منها ولجأت إلى السند وهذه العصابة اقتربت إلى ملك السند، فتعاقبهم الحجاج وأرسل محمد بن القاسم ليغزوا الهند وهذه النقطة التي يبدو منها المؤرخون الهنود تاريخ دخول المسلمين في الهند.

وأما الطريق الثالث الذي دخل الإسلام أو المسلمون في أصح التعبير هو

طريق ممر خيبر.[٧] فأول من دخل من هذا الممر هو الملك الفاتح محمود الغزنوي في عام ١٠٣٠م وهاجم الهند بقواته مرة بعد مرة حتى يبلغ عدد حملاته إلى سبعة عشر أو أكثر منها وأخيرا انتصر على عدوه وضم بعض المناطق الهندية إلى مملكته وخلفه ملوك ضعاف حتى انتزع الغوريون الحكومة من أسرته وجاء شهاب الدين محمد الغوري وتقدم إلى دلهي عن طريق لاهور، ولكن ملك دهلي برتوي راج شوهان لاقاه وهزمه فرجع على أدراجه إلى أفغانستان، ثم هاجم في السنة القادمة وانتصر على عدوه وفتح هذه المناطق الشمالية للهند، وجعل دلهي عاصمته الجديدة، وهكذا فتح بابا جديدا للحكم الإسلامي في الهند.

قال جواهرلال نهرو وهو يقارن بين محمود الغزنوي وشهاب الدين الغوري "إن محمود الغزنوي ولو كان عالما أحب الثقافة والفنون، كان يمثل محتلا أجنبيا على الهند لأنه نقل كل شئ غال إلى غزنة وأما الغوري فاتخذ الهند دولته ووطنه ولم يرجع إلى وطنه الأصلي حيث كان من جيل الهنود الآريين. فحينما انتصر وهزم ملك دهلي استقر فيها وجعل مدينة دلهي عاصمة لدولته العظيمة التي امتدت إلى غزنة في شمال الغرب وأراد أن يبني الهند على بنيان مرصوص ويقويها.[٨]

ثم بدأت سلسلة الحكومات الإسلامية بالتوالي كالدولة الغورية التي قامت على يد شهاب الدين الغوري على أنقاض الدولة الغزنوية وسارت على خطتها في فتح الهند حتى جاء أحد قوادها المماليك هو قطب الدين أيبك، ثم تعاقبت عليه الدول الإسلامية من ترك وأفغان وطاغلاقين وسادات ولوديين وتيمورين وأخيرا جائت الدولة المغولية العظيمة ظلت هذه البقعة من الأرض تنمو وتزدهر حتى بلغ ازدهارها إلى ذروة الكمال في عهد الإمبراطورية المغولية العظيمة، وفي هذا الزمن دوي صيتها في العالم كله حتى اعتبرها عديد من المؤرخين والباحثين من أغنى البلدان على وجه المعمورة.

وفي الحقيقة لم يكن لبعض المدن الهندية مثيل في العالم كله في وفرة

الموارد المالية وفي أصالة العناصر الثقافية، كما يذكر الحاكم الإنجليزي اللورد كلائف(Lord Clive) أن مرشد آباد من ولاية بنغال كانت تضاهي مدينة لندن في السعة والنظام، فهي عامرة بالسكان وزاخرة بالموارد والثروة الطائلة إلا أن الأولى تمتاز من الأخرى بكثرة الأغنياء وأصحاب الأموال، وتمتعت الهند بالأمن والرفاهية والرقى في العهد الإسلامي، "فنعمت الهند في ظل الحكومات الإسلامية باستنتاب الأمن والرفاهية قرونا طويلة، فازدهرت الزراعة والتجارة وارتقى العمران والمدن، وتقدمت الصناعة لاسيما صناعة النسيج والغزل فتوفرت الخيرات وتدفقت الخزائن وطار صيتها في أرجاء المعمورة حتى سميت بـ"الطير الذهبي".[٩]

الاستعمار البريطاني وتأثيره على المجتمع الهندي

إن الظروف في الهند بدأت تتغير عقب دخول القوة الاستعمارية الإنجليزية لأن النظام الاستعماري قد فتح بابا جديدا في تاريخ الهند وجعل الإنجليز من إحكام السيطرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية مع امتداد الاستيلاء في أرجاء الهند المختلفة.

اطلع الأوربيون من خلال الكتب القديمة التي ألفت في القرن الأول للميلاد على أن الهند تزخر بثروة هائلة، وازدادت معلوماتهم عن الهند عندما اكتشفوا طرقا بحرية جديدة فتجلت أفواههم لابتلاع خيراتها وثرواتها الهائلة، ولكن لم يكن لهم أن يدخلوا الهند عفوة ودخلوا الهند مستترين بزي التجارة ونالوا عطف حكام المسلمين للتجارة وتوفير التسهيلات كرفع الضرائب عنهم والسماح لهم بإنشاء مراكز التجارة في سواحل الهند، فانتهزوا الفرصة واستغلوا هذه التسهيلات واستخدموها لصالح استيلائهم على الهند.

ومن المعلوم أن الحكم الإسلامي للهند قد بلغ ذروة القوة والاتساع والامتداد في عهد الإمبراطور أورنغ زيب عالمكير الذي ضم الهند كلها من حدود بورما إلى أرض أفغانستان تحت سلطانه ومملكته ومما لم يسبق له مثيل من قبل ولايضاهيه

أحد في اتساع الدولة طول مدة الحكومة معا إنه حكم البلاد مدة خمسين سنة حكما إسلاميا حازما، ومما يؤسف له أن هذا الامبراطور كان آخر إمبراطور قوي في أباطرة المغول، وبعد وفاة هذا الأمبراطور أورنغ زيب عالمكير عام ١٧٠٧م جاء خلفاء ضعاف لم يكونوا في مثل قوته وحزمه وتدبيره، فأخذت الدولة المغولية تتهاوى من فوق القمة وفقدت الدولة المغولية حيويتها وتدهورت قوتها السياسية وبدأت رقعة الدولة تتفتت شيئا فشيئا.

"وهذه الأوضاع تتيح الفرصة لبعض الأمراء الهندوس والسيخ ليجمعوا الجيوش ويشنوا حربا ضد الدولة الإسلامية المغولية ويقطعوا لهم من جسمها الكبير ولايات يحكمونها، وأما الملوك المسلمون في دلهي فيضعفون رويدا رويدا وينحصر نفوذهم وينكمش سلطانهم حتى أصبحوا صورة لا نفوذ لها ولا سلطان."[١٠]

وفي هذه الظروف انقسمت الدولة المغولية العظيمة إلى دويلات عديدة في مختلف المناطق والأقاليم، ولم تكن في الهند حينذاك أية سلطة متحدة متماسكة قادرة على صيانة البلاد من المستعمرين الأوربيين، وفي خلال هذا التفتت والضعف أخذت البرتغال وشركة الهند الشرقية البريطانية والشركات الهولندية والفرنسية تتصارع على بسط نفوذها على أرض هذه الدولة الإسلامية الواسعة عن طريق التجارة، وإن هذه الشركات قد بدأت عملها التجاري إبان قوة الحكم الإسلامي وازدهاره، وكان الأباطرة في أوج قوتهم لا ينظرون إلى هؤلاء إلا نظرتهم كتاجر يريد أن يكسب الأموال من التجارة ولذا تركوهم وربما منحوهم بعض التسهيلات التجارية وكانت هذه الظروف هي التي فيها استطاعت شركة الهند الشرقية البريطانية أن تحظى بالمقام الأول وتقضي على الشركات الأخرى فلا ندخل في العقد السادس من القرن الثامن عشر إلا ونرى أن هذه الشركة الهندية الشرقية قد رسخت أقدامها في الهند كلها وما يجاورها من البلدان.

وفي الفترة التالية أخذ أعضاء هذه الشركة الهندية الشرقية يراقبون بدقة الظروف السياسية الهندية السائدة آنذاك كما بدأوا يدرسون أوضاعها السياسية والاجتماعية بالتعمق والإمعان فوصلوا إلى نتيجة بأن هذه الأحوال كانت ملائمة للغاية للسيطرة على بلادنا الهند، ولما وجدوا أن الإمبراطور لعرش دهلي ليس له أي نفوذ وأصبح مجرد صورة لا روح فيها ولانفوذ لها فبدأت العناصر التخريبية وتضرب الأمراء بعضهم ببعض وتؤيد بعضهم بالمال والرجال ضد البعض الآخر وتداخلت في تفاقم أوضاع الإمبراطور، ومن الجدير بالذكر أن الظروف في دكن كانت موافقة للإنجليز أكثر مما كانت في المدن الهندية الأخرى، لأن هناك لم تكن حكومة تصادمهم فأقام الإنجليز مصنعهم الأول في منطقة دكن، وجعلوا في هذه المنطقة قلعة صغيرة وسموها قلعة سينت جارج Fort Saint George

ثم وقعت ما وقعت من الخلافات والصراعات بين أمراء الهنود وأعضاء الشركة وحينما أدرك بعض من الأمراء الخطر من هذه الشركة والسيطرة على الهند، فاضطرت الظروف إلى الحرب ضد الإنجليز، فأول من قام ضد هذا الاستعمار البريطاني هو الأمير سراج الدولة في بنغال وهاجم على حصونهم ليقضي عليهم ويريح البلاد من شرهم عام ١٧٥٧م وبما أن الشركة كانت تمتلك الأسلحة الفتاكة والأدوات الحربية المتقدمة، فانتصرت على جيش النواب سراج الدولة في معركة بلاسي عام ١٧٥٧م، وهذا الفوز الأول قد مهد السبيل للفتوحات الإنجليزية في المناطق الهندية الأخرى، وتكفي لنا الإشارة إلى حرب بكسر التي قام بها شجاع الدولة والملك شاه عالم الثاني ضد الاستعمار البريطاني عام ١٧٦٤م كما لا حاجة لنا أن نذكر عن المعركة الهائلة التي وقعت بين الإنجليز وسلطان تيبو الشهيد عام ١٧٩٩م ونتائجها.

فخلاصة القول أن هذه السلسلة استمرت إلى العقد الخامس من القرن التاسع عشر حتى استولت الشركة الهندية الشرقية على دويلة أودة وهي آخر على

دويلة في أيدي الهنود، وتم الاستيلاء على الهند كلها تماما.

وبعد حرب بلاسي عام ١٧٥٧م تغيرت العلاقات التجارية مع الهند تغيرا أساسيا، واستطاعت الشركة بعد هذا أن تستخدم سيادتها السياسية في بنغال من أجل الحصول على السيطرة الاحتكارية للتجارة الهندية والمنتوجات البلدية، فبدأت تنفق الأموال والعوائد التي حصلت عليها من الملوك والتجار في تصدير المنتوجات الهندية، وبدأت تنتقل ثروتها الهائلة إلى البريطانية، ولأجل هذا أجبرت الشركة حائكي بنغال على أن يبيعوا منتوجاتهم بأسعار منخفضة، وكان العمال مجبرين الآن أن يعملوا للشركة مقابل أجور قليلة.

وعلى صعيد آخر، إن الضباط الصغار كانوا ينهبون الإقطاعين والرعية ويجمعون الأموال لأنفسهم، وكان هذا الأمر عاديا أن يؤذي الفلاح أو يدخل في السجن إذا انتعش أو انكمش في أداء ضرائب الأرض على الديون بتأخر، وانتشر الفساد في كل مجال من مجالات الحياة لم تشاهد البلاد من قبل، ومن الجدير بالذكر أن الإنجليز ظلوا كالأجانب في بلادنا وماكانوا كالشعوب التي فتحت الهند من قبلهم كالمسلمين، فإنهم لم يرتبطوا اجتماعيا حتى بالطبقة العليا للهند. وكانوا يشعرون بمركب الكمال اجتماعيا كما كتب السر سيد أحمد خان، "وحتى إذا مثل هندي أمام الإنجليز يحوز منصبا أعلى كان يقشعر جلده فزعا".[١١]

وفي هذه الظروف كان المسلمون والهندوس والعمال والفلاحون ورجال الجيش والإقطاعيون وأفراد العائلة الملكية بائسين ورثي الهيئة الاقتصادية، تدهورت الأوضاع الاقتصادية تدهورا إذ دفع هذا الوضع الفلاحين والصناع إلى وهاد الفقر حتى كان كثير من الإقطاعين وضباط الحكومة يواجهون الأزمة المالية، وهكذا أصبح الميدان مهيأ للثورة ضد المستعمرين، وفي غضون هذه الأيام قد صدر الأمر من قبل الحاكم الإنجليزي باستخدام الخرطوشات بالنزع مستمدا من

الأسنان، وكانت هذه الخرطوشات تشرب بشحم البقرة والخنزير للدسم هذا ما أغضب رجال الجيش الهنود فإنهم اعتقدوا أن الإنجليز هجموا على ديانتهم وأصبحت مشاعرهم بجروح ثقيلة وصدق السر سيد أحمد خان إذ قال: "وموجز الكلام أن الهنود في نهاية المطاف وجعلوا يظنون أن جميع هذه القوانين توضع من أجل إذلالهم وسلب دينهم منهم ومن مواطنيهم الهنود". [١٢]

ولاريب أن قسوة عمال الشركة الهندية الشرقية وسوء معاملتهم مع المواطنين الهنود، والفقر المتزائد والعسر المتضاعف كان من أهم أسباب الاضطراب الذي أدى إلى الثورة الهندية، وكذلك العوامل المختلفة من الخصومة الذاتية والعصبية الدينية والعاطفة الوطنية والداعية الاقتصادية كلها ساهمت في إثارة الثورة.

ثورة عام ١٨٥٧م

إن ثورة عام ١٨٥٧ تعتبر من أهم الأحداث التاريخية في شبه القارة الهندية، وفي الحقيقة هذه الثورة بداية عظيمة للكفاح ضد الاستعمار البريطاني، وقد ذكرت أحداث هذه الثورة في معظم الروايات التاريخية المشتملة على تاريخ الهند، إلا أنه تم عدم إلقاء الضوء على الدور البارز الذي قام به المسلمون في هذه الثورة والتي كانت تستوجب بأن تعتبر كفاحا عظيما قاده المسلمون للحصول على الاستقلال من براثن الاستعمار البريطاني الغاشم إن هذه الثورة وقعت في صباح يوم ١١ عام ١٨٥٧م وبدأت النار من ميرت لتعلن عن بدء الثورة ضد الحكومة الإنجليزية والتي أودت بحياة بعض المسئولين البريطانيين، وسرعان ما امتد لهيبها إلى جميع أنحاء البلاد، فوصل الثوار بهذه النيران إلى ضفة بنهر جمنا ومنها إلى القلعة الحمراء في دلهي حيث دخلوها عن طريق راج غات، وهم مشتعلين ينادون بالإمبراطور الأخير السجين بهادر شاه ظفر والذي لم يكن لديه سوى أنه كان مرتبطا بالمغوليين ليكون قائدا لهذه الثورة التي نشبت ضد الاستعمار البريطاني،

رغم أنه لم يكن على يقين تام من نجاح هذه الثورة أو واثقا من قدرته أن يلعب دورا هاما في هذه الثورة حيث استطاعت هذه الثورة أن تسيطر على مدينة دلهي وقتل سائمون فراسر (Simon Fraser) الوكيل السياسي البريطاني وبعض المسئولين البريطانيين الآخرين، ودمرت المكاتب العامة والمؤسسات الحكومية، ومن الواضح أن هذه الثورة عام ١٨٥٧م كانت ثورة غير ناجحة إلا أنها كانت بداية كفاح لتحرير البلاد من براثن الأجانب وكما أن احتلال مدينة دلهي وعرض الإمبراطور بهادر شاه ظفر كإمبراطور للهند ومشاركة الشعب كله في هذه الثورة أعطاها دواعي سياسية إيجابية للتمرد والعصيان، ووفر ساحة لتجمع هؤلاء الثوار وتذكر الأمجاد الماضية للإمبراطورية المغولية.

وفي شهر واحد من السيطرة على مدينة دلهي انتشرت هذه الثورة في كل المناطق المختلفة للهند، أمثال كانفور، لكناؤ، بنارس وإلهآباد، وبريلي وجغديش فور، وجهانسي، ولم تتحدد الثورة إلى هذه المراكز الهامة بل إنما امتدت إلى جميع الجيوش الموجودة في بنغال ومومبائي إلا أن كتيبة مدراس هي المنطقة الوحيدة التي لم تشترك في هذه الثورة، وهكذا امتازت نشاطات المتمردين بكونها معادية للبريطانيين.

ومن اللافت النظر أن ظهور هذه الثورة الشعبية ضد الاستعمار البريطاني كانت طبيعية نظرا لنظام الحكم البريطاني السيئ الذي أثر سلبا على مصالح جميع طبقات المجتمع الهندي، كما أن الضرائب الكبيرة التي فرضها نظام الحكم البريطاني على الفلاحين قد أثرت على أوضاعهم بشكل سيئ للغاية، حيث أن الشركة الهندية الشرقية البريطانية لم تكن ترغب إلا في الحصول على دخل كثيف حدا من البلاد وبغض النظر عن تفاقم أوضاع هؤلاء الفلاحين وإصابتهم بالفقر والمشاكل العديدة كما يكتب الضابط البريطاني William Adwar في سنة ١٨٥٩م عن وجوه ثورة عام ١٨٥٧م.

Jawaharlal Nehru University Library

TH-19422

"وكان البوليس عذابا للناس وأصبحت أعمال النهب والقتل والاستغلال التي ارتكبها رجال البوليس من أكبر أسباب السخط الذي أحدثه تجاه الحكم الإنجليزي"

فخلاصة الكلام أن فقر البلاد آنذاك والاستعمار البريطاني وسياسته الاقتصادية والتجارية الغاشمة وكذلك الخصومة الذاتية والعصبية الدينية والعاطفة الوطنية من أهم أسباب الاضطراب التي دعت إلى هذه الثورة العظيمة.

المسلمون وأوضاعهم السياسية والاجتماعية بعد الثورة

من الملاحظ أن الهندوس والمسلمين جميعا قد شاركوا في ثورة عام ١٨٥٧م وحاربوا ضد الإنجليز جنبا إلى جنب، إلا أن الإنجليز ظنوا أن المسلمين هم الذين حرضوا الهندوس على شن الحرب ضد الاستعمار البريطاني لأجل تحرير البلاد من براثن الأجانب ولأن عجلة القيادة في هذه الثورة كانت تحت أيدي المسلمين الهنود، ولاشك في أنهم قد حرضوا المواطنين الهنود على شن الحرب ضد الاستعمار البريطاني، فلما فشلت هذه الثورة أصبح المسلمون أبغض الناس في عين الحكومة الإنجليزية وأشدهم على الاستعمار البريطاني، فقتل الإنجليز آلافا من المسلمين ونصبوا على المشانق في الشوارع وصلبوا عددا كبيرا منهم على الأشجار، وعقد الإنجليز العزم على استئصال كافة المسلمين من ربوع الهند فحقا ضاقت الأرض عليهم بما رحبت، فهكذا دفع المسلمون ثمنا باهضا لنضالهم وجهادهم ضد الإنجليز.

يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي في هذا الصدد:

"ولما أخفقت هذه الثورة ـ لأسباب شرحت في الكتب التي ألفت في هذا الموضوع ـ صب الإنجليز على أهل الهند جاء غضبهم، وانتقموا منهم انتقاما شديدا وبطشوا بالهنود شعبا وأمة، لا يعرف الرحمة ولا يعرف العدل الإنساني ولا يعرف الحدود، وكانت مجزرة هائلة جددت ذكرى جنكيز وهلاكو، وقد قتلوا ثلاثة أبناء

الملك السبان المأسورين بعد ما أعطوهم الأمان والعهد والميثاق بهمجية وقساوة امتعض منها كثير من الإنجليز، وشنقوا ثلاثة وعشرين أبناء الأسرة الملكية فيهم مرضى وزمني وشيوخ وعجوز وأهانوا الملك وحاكموه محاكمة مهينة ذليلة، وكانوا حريصين على قتله أشنع قتلة إلا أن ضابطا منهم كان قد وعد أن يحافظ على حياته ليسلم نفسه إليه فحكموه عليه بالنفي المؤبد إلى رنجون Rangoon حيث مات طريدا شريدا مقترا عليه في الرزق مضيقا عليه، ودخلت الجيوش الإنجليزية في مدينة دلهي فكان تفسيرا لقوله تعالى "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة".١٢

وقد كتب هنري هملتن تامس Henry Hamliton Thomas في كتابه "ثورة الهند وسياستنا المستقبلة" (Rebellion in India and our Future Policy) الذي ألفه في سنة ١٨٥٨م بعد الثورة بسنة فقط، والكلمة تشرح عقيدة الإنجليز ووجهة نظرهم عن المسلمين بعد الثورة فيقول:

"لقد قدمت أن الهنادك لم يكونوا أصحاب الفكرة في ثورة ١٨٥٧م ولم يكونوا مصدرها، وسأثبت في هذه المناسبة أن الثورة كانت نتيجة مؤامرة المسلمين إن الهنادك إذا تركت لهم الحرية وكانوا محدودين في وسائلهم لم يكونوا ليساهموا في مثل هذه الثورة، وماكانوا يؤيدونها، أن المسلمين لم يزالوا ولايزالون منذ عهد الخليفة الأول مستكبرين غير متسامحين وظالمين، لم يزل هدفهم إلا أن يقيموا الحكومة الإسلامية بأى وسيلة كانت، وأن ينشأ الناس على كراهية المسيحيين، وإن المسلمين لا يستطيعون أن يكونوا رعية وفية لحكومة تدين بغير دين الإسلام لأن ذلك مستحيل في ظل أحكام القرآن"

وقد كانت هذه السياسة المتبوعة في الحكومة الإنجليزية القائمة ضد المسلمين، وكان الهدف من هذه السياسة تقليم أظافر المسلمين والقضاء على

معنوياتهم، وقتل كل أمل يراود نفوسهم، فاتجه الإنجليز إلى إضعاف المسلمين من الناحية الاقتصادية وسدوا في وجوههم كل الوظائف الكبيرة والصغيرة التي كانوا سابقا يفوزون بأكثرها وضعوا العراقيل المادية في طريق تجارتهم.

قد بدأ الحكام الإنجليز ينظرون إلى المسلمين بنظرة الشك والأحقاد، وحرموهم من الوظائف الحكومية من جانب، ومن جانب آخر استغل مواطنو الهند غير المسلمين تباغض الإنجليز ضد المسلمين ونجحوا في الحصول على الوظائف والمناصب الحكومية، وبذلك وصل المسلمون إلى الدرك الأسفل من الانحطاط السياسي والاجتماعي.[١٣]

وقال المستر هنتر وهو يصور أحوال المسلمين بعد الثورة.

„ إن المسلمين وإن كانوا يملكون المؤهلات والكفاءة المطلوبة لوظيفة فإنهم يمنعون عن ذلك ببلاغ رسمي ".[١٤]

وبهذا الخصوص قال الأستاذ مسعود عالم الندوي: "من شر ما فعلت بهم الحكومة البريطانية أنها سدت في وجوههم أبواب الرزق في دواوينها، وسارت أملاكهم وتركتهم حيارى، لا يدرون ماذا يفعلون وكيف يعيشون، وكادوا يصبحون عالة على غيرهم يتكففون ولا يجدون ما يسدون به رمق حياتهم.[١٥]

فخلاصة الكلام أن الفترة التي أعقبت الثورة الهندية كانت فترة يأس وضيق للشعب الهندي بوجه عام وللمسلمين بوجه خاص ومن الملاحظ أن نصيب الشعب المسلم الهندي في الشقاء والبؤس كان أكثرهم بالنسبة للشعوب الهندية الأخرى، فقامت الحكومة الإنجليزية بإحراق بيوتهم وإضاعة أموالهم، وإراقة دمائهم، وإغلاق مدارسهم ومراكز علومهم، ففسدت أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية كلها بمنتهى للغاية، فأصيب المسلمون بجمود تعليمي واجتماعي وتسرب اليأس إلى نفوسهم وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم، كأن الدنيا

أظلمت عليهم وضاقت الأرض عليهم بما رحبت وخاف المسلمون على دينهم وثقافتهم وعلى مستقبلهم فأخذوا يفكرون في طرق يمكن بها مقاومة الأغراض الاستعمارية. فقرروا تكوين جبهة قوية تعليمية يقومون بواسطتها بمقاومة الغزو الفكري الإنجليزي من جانب، والمحافظة على ثقافتهم الإسلامية من جانب آخر.

مراكز العلوم والمقاومة

وفي هذه الأحوال والظروف الحالكة ظهر في الهند نوعان من القيادة للمسلمين، النوع الأول: القيادة الدينية التي يتزعمها علماء الدين والقيادة التعليمية التي يتزعمها السر سيد أحمد خان.

أما القيادة الدينية فركز أصحابها اهتمامهم على الاحتفاظ بالتعاليم الإسلامية والنزعات الدينية ومظاهر الثقافة الإسلامية والدعوة إلى التجنب عن الحضارة الغربية وأفكارها وفلسفتها وتعاليمها، وتحقيقا لهذا الهدف قاموا بإنشاء المدارس الدينية والمراكز التعليمية في مختلف أرجاء الهند، فأول مدرسة إسلامية من هذا النوع أنشأها هؤلاء الناس كانت ببلدة ديوبند من ولاية أتربراديش عام ١٨٦٦م تحت رئاسة الشيخ محمد قاسم النانوتوي، وأصبحت هذه المدرسة فيما بعد رائدة للقيادة الدينية وداعية الحركة الإصلاحية والتعليمية والثقافية في الهند.

ومن الملاحظ أن العلماء البارزين الذين أنشأوا هذه المدارس العربية تستولي الفكرة عليهم أن يربوا شبابهم تربية إسلامية بعيدة عن التيار الاستعماري الإنجليزي كما يريدون أن يغرسوا فيهم روح الدين وكراهية المستعمر، ومن فضل الله تعالى أن هؤلاء العلماء قد حققوا أهدافهم المنشودة.

كما يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي في هذا الصدد:

"وكان المتخرجون في دار العلوم تأثير كبير في حياة المسلمين الدينية في الهند ولهم فضل كبير في محو البدعات وإزالة المحدثات، وإصلاح العقيدة والدعوة إلى الدين

ومناظرة أهل الضلال والرد عليهم، وكانت لبعضهم مواقف محمودة في السياسة والدفاع عن الوطن، وكلمة حق عند سلطان جائر، وشعار دار العلوم ديوبند التمسك بالدين والتصلب في المذهب الحنفي والمحافظة على القديم والدفاع عن السنة.١٧

فخلاصة القول إن هذه المدارس الإسلامية قد لعبت دورا فعالا في تثقيف المسلمين والمحافظة على الدين وفي انتشار ثقافة الإسلامية في أرجاء الهند كلها حتى أصبحت كقلعة الإسلام ضد الاستعمار البريطاني، كما لعب صاحبنا شيخ الهند وهو خريج في دار العلوم ديوبند دورا رائدا في تحرير البلاد. وهكذا حققت المدارس أهدافها النبيلة.

أما القيادة التعليمية الأخرى التي ظهرت تحت زعامة السر سيد أحمد خان ففكر أصحاب هذه القيادة بجدية في أسباب التدهور وأوضاع المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتوصلوا إلى نتيجة بأن المسلمين يعانون من اليأس والفقر والتخلف وعدم الثقة بأنفسهم لأنهم لم يأخذوا قدرا كافيا من الثقافة الغربية والعلوم العصرية، بل إنما تمسكوا بالعلوم القديمة المتوارثة التي لا تقتضي متطلبات العصر الحديث، وليس معنى ذلك أن هؤلاء الزعماء كانوا يخالفون العلوم الإسلامية بل كل ما يريدون هو إدخال التعديلات والإصلاحات في المقررات الدراسية القديمة مع العلوم العصرية الحديثة المتمشية مع مقتضيات الزمن الحاضر إلى جانب اهتمامها بدراسة مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة لكي لا يتخلف المسلمون في أي مجال من مجالات الحياة، ومن أجل هذا قام هؤلاء الأصحاب وعلى رأسهم السر سيد أحمد خان يدعون إلى إزالة الجفوة بين الإنجليز والمسلمين، كما دعوا المسلمين إلى إقبال على العلوم العصرية التي جاء بها الإنجليز الهند ولتحقيق هذا الهدف السامي أسس السر سيد أحمد خان وأصحابه مدرسة العلوم في عام ١٨٧٥م بمدينة عليكره التي تطور مع مرور الزمن حتى تحولت إلى جامعة عليكره

الإسلامية، وقد لعبت هذه الجامعة وأبناءها دورا كبيرا في حياة المسلمين وفي سياسة البلاد، وانتشر المتخرجون في كل أرجاء الهند، وأصبحوا فيما بعد قادة الأمة الإسلامية في الهند.

وكانت هذه الأحوال والظروف التي فيها فتح شيخ الهند عينه الذي نتكلم عنه، وكانت هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية التي فيها نشأ وترعرع صاحبنا هذا، وكانت هذه هي الأسباب والبواعث التي جعلته قائدا سياسيا وبطلا حرا في سبيل تحرير الوطن.

الحواشي والهوامش

١ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص.٦١، السيد أبو الحسن على الندوي

٢ المسلمون في الهند، ص. ٢٠٧، السيد أبو الحسن على الندوي

٣ مقالات سليمان، ص.١٨٥، السيد سليمان الندوي

٤ أبو الكلام آزاد لمصلح الديني في الهند، ص.٢١، الدكتور عبد المنعم النمر

٥ مختصر تاريخ هند، ص.٢٧ـ١٨، سيد أبو ظفر الندوي

٧ الممر المشهور بين الجبال التي تحيط بالهند من جهة الشمال

٨ Jawaharlal Nehru, The Discovery of India, P. 235-238

٩ أبو الكلام آزاد المصلح الديني في الهند، ص. ٢٤، الدكتور عبد المنعم النمر

١٠ ثقافة الهند، ص. ٣٧، المجلد رقم ٤١ العدد٢ عام ١٩٩٠م

١١ اسباب بغاوت هند، ص. ١٦٤، سر سيد احمد خان

١٢ اسباب بغاوت هند، ص. ١٦٤، سر سيد احمد خان

١٣ المسلمون في الهند، ص. ١٥٠، السيد أبو الحسن على الندوي

١٤ نفس المصدر، ص ١٥٧

١٥ نفس المصدر، ص. ١٤٧ـ١٤٨

١٦ تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، ص. ١٢١ـ ١٢٢، مسعود عالم الندوي

١٧ المسلمون في الهند، ص. ١٥٠، السيد أبو الحسن على الندوي

الفصل الثاني

شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي: حياته وشخصيته

أنجبت بلادنا الهند عددا من الشخصيات ذات السمعة الطيبة التي تلألأت على الأفق ثم هوت أو ذبلت قبل أن تتفتح، في بوتقة الخمول والغياب، ولكن العدد القليل السعيد من الورى نالوا السمعة الخالدة، فنجد منهم بدون شك شخصية محمود الحسن المعروف بشيخ الهند الذي وقف حياته في الدرس والتدريس وفي توحيد الناس وإصلاح المسلمين وخصوصا في الكفاح ضد الاستعمار البريطاني لتحرير البلاد.

نفس كبيرة، شديدة الحساسية، زافرة بالمشاعر، جياشة العاطفة وجسم نحيل نحيف، منزلة مرموقة في عالم العلم والدين والأدب والسياسة وتلك هي الصفات المميزة لشخصية شيخ الهند الذي استقبلته الحياة عام ١٨٥١م في أسرة عريقة ذات مجد وشرف في بريلي من ولاية أترابراديش.

أسرته وموطنه:

البيئة تخلق الإنسان وتوجهه ولها أهمية كبيرة في تكوين شخصيته ونفسيته، وهذه البيئة لا تتحدد إلى الحي أو الحارة فحسب، بل هي تتسع إلى الوقائع الأسرية التي يعيش فيها شخص أو يسمع عنها، وأن الأسرة تخلق النزعة الإنسانية والنفسية الشخصية، إنها توجه الإنسان شعوريا وعن غير شعور، فهو يسمع عن الأحداث والأمور التي مر بها أفراد الأسرة يتأثر بها وخاصة إذا كان آباؤه وأجداده قاموا بدور كبير في قلب تيار التاريخ أو تغيير مجرى البلاد السياسي والديني.

إن مدينة ديوبند قرية جامعة قديمة جدا في مديرية سهارنبور بولاية

أترابراديش بالهند تقع على مسافة ٩٩ ميلا من دلهي العاصمة شمالا و ٢٠ ميلا من مديرية سهارنبور جنوبا.

وكانت في هذه المدينة سلالة الخلفاء الراشدين منذ قديم الزمان ومنها من ينتهي نسبهم إلى أبي بكر الصديقؓ ويعرفون بـ"الصديقي" ومنها من ينتمون إلى عثمان بن عفانؓ ويقال لهم "العثماني" أما أسرة محمود الحسن الديوبندي تتصل نسبتها إلى عثمان بن عفان.[١] فكان من آبائه رجل يدعى بشيخ فتح علي، وكان له ثلاثة بنين أحدهم الشيخ ذوالفقار علي الديوبندي والد شيخ الهند الذي كان موفقا ورجلا ذا مكانة سامية في المجتمع، وعالما محترما محببا لدى الناس وكان يعلوه السؤددوالهيبة مع جوده وسخائه وخلقه الحسن، وكان يعتبر في المدينة رجلا سعيد الحظ.

عاش الشيخ ذو الفقار علي الديوبندي حياته كلها في الخدمات العلمية والأدبية وكانت له عناية بالغة بالأدب العربي ومساهمة مشكورة في حقله، توجد من آثاره الأدبية والعلمية شعرا ونثرا في الأدب العربي فمنها "تسهيل الدراسة" وهو شرح ديوان الحماسة، و"تسهيل البيان" وشرح ديوان المتنبي، و"التعليقات على السبع المعلقات"، و"البلاغة" وعطر الوردة "في شرح قصيدة بردة، و"الإرشاد" في شرح قصيدة بانت سعاد، وهذه الكتب القيمة تدل على نبوغه العلمية والأدبية.

قد رزقه الله حظا وافرا من المال والأولاد، وصحة البدن وطول الحياة فله بنتان وأربعة بنين، فالأول محمود الحسن المعروف بشيخ الهند الذي نحن بصدد ترجمة حياته وخدماته في هذه الرسالة، والثاني الشيخ حامد حسن الذي كان موظفا في مديرية بجنور بولاية أترابراديش، والثالث الحافظ الطبيب محمد حسن والرابع الشيخ محمد محسن فكان كل واحد منهم عالما عاملا تقيا ذا مكانة سامية في الدين والدنيا.

فكان في هذه الأسرة من علم وتعلم، ومنهم من قرأ وكتب ومنهم من دعا المسلمين إلى إصلاح عقائدهم في الدين ودعا المشركين إلى الإسلام، فنشأ شيخ

الهند في أسرة علمية شريفة تجلت فيها خصائص العلم والفضل والسياسة والتقوى كما عرفت بالإصلاح وحسن السيرة والاستقامة.

ولادته ونشأته:

ولد محمود الحسن الديوبندي المعروف بشيخ الهند عام ١٨٥١م بمدينة بريلي بولاية أترابراديش حيث كان أبوه موظفا في إحدى المناصب الحكومية، فسر أبوه كثيرا. تربى محمود الحسن في أحضان أمه الحنون، ولما بلغ السادسة من عمره بدأ يقرأ القرآن على عالم جليل ميان جي منغلوري، ثم قرأ قدرا يسيرا من الكتب الفارسية الابتدائية على الشيخ عبد اللطيف، ثم تلمذ على عمه الفاضل الشيخ مهتاب علي وقرأ عليه من الكتب الفارسية والعربية.

التحاقه بدار العلوم ديوبند:

وكان شيخ الهند لم يتجاوز خمسة عشر من عمره، وهو يقرأ كتاب المختصر للقدوري في الفقه وشرح التهذيب في المنطق على عمه الفاضل مهتاب علي إذ تم تأسيس مدرسة عربية بمدينة ديوبند في عام ١٨٦٦م على اقتراح وتشاور من عباد الله المخلصين تحت رئاسة الشيخ محمد قاسم النانوتوي، والجدير بالذكر أن أباه الفاضل ذوالفقار علي الديوبندي من مؤسسي هذه المدرسة العربية، ثم عينوا هؤلاء العلماء الكبار الملا محمود الديوبندي كمدرس أول في هذه المدرسة، فأول طالب من بدأ القراءة على هذا المدرس الأول هو صاحبنا هذا شيخ الهند في مسجد صغير تحت شجرة رمان.[٢] ثم بارك الله في هذه المدرسة حتى أصبحت أم المدارس وكبرى الجامعات الإسلامية العربية الأهلية في شبه القارة الهندية، فتوافد إليها الطلبة من شتى أنحاء العالم، وتفجرت منها ينابيع العلوم الإسلامية عامة وللحديث النبوي خاصة حتى أنجبت هذه المدرسة كثيرا من العلماء ورجال الفكر الإسلامي والمخلصين الكتاب المتحمسين والخطباء المصاقع، ثم تحولت هذه المدرسة على

مرور الزمن إلى جامعة إسلامية عرفت بدار العلوم ديوبند.

فقرأ هناك العلوم الدينية وآداب اللغة العربية على علماء الدار الكبار وتعلم المنطق والفلسفة والهيئة والإقليدس والفقه وأصوله والتفسير وأصوله، ثم شغف بعلوم الحديث وأخذ الحديث صحيح البخاري عن الشيخ يعقوب النانوتوي وهو أول رئيس هيئة التدريس في هذه الجامعة، ثم استفاد من الشيخ قاسم النانوتوي استفادة كاملا وصحبه مدة طويلة وانتفع به انتفاعا كثيرا حتى صار بارعا في العلوم.[٣] وفي عام ١٨٧٥م تخرج في دار العلوم ديوبند.[٤] فهو أول خريج في هذه الجامعة الإسلامية، والجدير بالذكر أن شيخ الهند كان يدرس الطلاب قبل أن تخرج ونيطت به عمامة الفضيلة، فلما تخرج أحس فيه الأساتذة الكبار مخايل النجابة ومآثر العلم والذكاء فعينوه مدرسا مساعدا في عام ١٨٧٥م وعندما توفي الشيخ السيد أحمد الدهلوي ولي شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي رئاسة هيئة التدريس في الجامعة، فشمر عن ساق الجد والجهد في تدريس علوم السنة وتخريج الطلبة وتربية الطالبين.[٥]

نبوغ شيخ الهند في علم الحديث وأسلوبه في التدريس:

كانت حلقة درس شيخ الهند نموذجا طيبا لحلقات السلف الصالح وكبار المحدثين، فكانت آيات الكتاب المقدس وأحاديث الرسول ﷺ تدور على لسانه، وكانت ذاكرته محيطة بمذاهب الأئمة الأربعة وآثار الصحابة وآراء التابعين والفقهاء من بعدهم، وكان يتجنب تماما عن استخدام الكلمات الغريبة الصعبة وإنما كان يشرح الحديث في أسلوب سلس سهل باللغة الأردية الفصحى، لم تكن في أسلوبه العلمي مسة من الرياء والسمعة ولكن الله قد وهبه من التأثير على الطلاب، وكان بدراسته للحديث إقبال كبير وأثر عظيم، كان الطلبة يتهافتون على سماعه وحضوره حتى أن العلماء الكبار يحضرون في درسه ويستفيدون منه وهو يحل

معضلاتهم العلمية التي كانوا يجدون في صدورهم فينصرفون مطمئنين.[٦] وكـــــان الطلاب إذا قدم الشيخ من سفره يتقاطرون على أخذ علم الحديث منه ويحضرون دروسه بالرغم أنه يدرس الساعة الثانى عشر، وأحيانا إلى الساعة الواحدة في الليل، ولكن الطلاب يجلسون في درسه بوقار وهدوء وسكينة كأن على رؤسهم الطيور.

ومن عادات الشيخ أنه كان يذكر في أثناء الدرس ما أودعه الإمام محمد قاسم النانوتوي مؤلفاته القيمة من نكات علمية بديعة مع ما كان يأتي به من دراسة عميقة وأمور علمية من عند نفسه وكذلك ينقل آراء أهل العلم من المفسرين والمحدثين وشارح الحديث والكتاب بكل احترام وتقدير ويدعو لهم دائما، وكان دائما منهمكا في مطالعة كتب في شتى العلوم ولاسيما دواوين الحديث المعروفة والنظر في معانيها وشروحاتها، غير أن نبوغه العلمي كان لا يقتصر على كتب كانت وضعت في شرح هذه الدواوين وإنما كانت ذاكرته تجود بمباحث علمية نفسية بديعة لم تخطر ببال أحد من قبله، ولذلك فاستطاع أن يستخرج جوهر ما ذكره كبار المحدثين من درر ثمينة من خلال دراساتهم الطويلة كما أنه بالغ في شرح أدلة الفقهاء الموجز المجملة ببسط وتفصيل ينقطع نظيره، وكان يعجبه إعجابا كبيرا الإمام أبو حنيفة ومن الأئمة المجتهدين كما يعجبه محمد بن إسماعيل البخاري من جماعة المحدثين وقد شرح الله صدره لمذهب الإمام أبي حنيفة والدفاع عنه والتصلب فيه فكان الطلاب يتأثرون بذلك كثيرا.

ومن الخصائص المميزة لشيخ الهند في تدريس الحديث هي اتباع منهج الشاه ولي الله الدهلوي تماما، وكان يحذو حذوه في شرح الأحاديث النبوية والجمع بين الآراء الفقهاء المختلفة والتوفيق فيما بين الأحاديث المتعارضة وبالإضافة إلى أنه كان يتناول رأي المحدث الدهلوي في البحث بكل قوة وثقة ويذكره باحترام وتقدير لأن إسناده في الحديث كان ينتهي إلى الإمام الدهلوي.

تلاميذ شيخ الهند:

إن شيخ الهند قد قام بخدمة التدريس بالجامعة الإسلامية الشهيرة بدار العلوم ديوبند حوالي أربعة وأربعين عاما، ولم يزل يدرس علوم الحديث مدة أربعين سنة فتلمذ عليه جم غفير من الطلاب وتخرجوا عليه كثيرا من العلماء البارزين الذين لعبوا دورا هاما في نشر العلوم والثقافة في أرجاء الهند وخارجها ومن أجلها لعلامة شيخ الإسلام حسين أحمد المدني الذي لعب دورا فعالا بعده في سياسة الهند، والعلامة شبير أحمد العثماني الذي قام بتدريس علم التفسير والحديث لا ينسى فضله والمفتي كفايت الله الدهلوي الذي ساهم مساهمة كبيرة في إصلاح المسلمين وإنقاذهم من فتنة شدهي كرن والعلامة أنور شاه الكشميري المحدث الكبير والعلامة حكيم الأمة أشرف على التهانوي الذي لعب دورا فعالا في إصلاح المسلمين وفي محو البدعات وإزالة المحدثات والمجاهد الكبير عبيد الله السندهي وكان له دور هام في تحرير الوطن واستقلال البلاد، وهؤلاء العلماء البارزون قاموا بدور عظيم وملموس في خدمة دين الإسلام والعلوم الإسلامية وفي تثقيف المسلمين الهنود كما أن هؤلاء العلماء العظام الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم وبكل ما وسعهم من الطاقات والثروات في سبيل تحرير الهند واستقلالها.

مبايعته وسفره إلى الحجاز:

إن العلوم الباطنة لها أهمية كبيرة في تزكية النفوس وفي الاستقامة على الدين واتباع السنة، وكان سماحته يميل إلى الإحسان والسلوك كما كان قلبه ولسانه عامرين المعارف الإلهية وعلوم الكتاب والسنة وكانت له قدم راسخة وباع طويل في إرشاد الطالبين والدلالة على الرشد، وقد نفع الله به خلقا كثيرا وتخرج عليه كثير من العلماء والمشائخ وأصحاب الطريقة ونبغت بتربيته جماعة من أهل التربية والإرشاد، فلم يقتنع شيخ الهند بعلومه الظاهرة وفضائله العلمية بل وإنما أراد أن

يجمع علم عمارة الباطن بالإيمان والإحسان، لأن قلبه قد مال إلى التصوف والسلوك منذ دراسته في دار العلوم ديوبند، وكانت نفسه قد أشربت حب النبي ﷺ منذ طفولته فكان خلق شيخ الهند كل ما روي في الأحاديث الصحيحة، وكان صدره مستنيرا بأنوار معرفة الله جل وعلا، كما كان قلبه عامرا ورطبا بمعارف الله وعلوم الكتاب والسنة فعندما زاد شوقه في التصوف والسلوك تتلمذ على الشيخ إمداد الله المهاجر واستفاد منه في العلوم الباطنة وحصل منه الخلافة ثم بايع على يد المصلح الكبير العلامة رشيد أحمد الكنكوهي وحصل منه الإسناد والخلافة، وبعد ما اكتملت دراسته في السلوك والتصوف وأراد أن يسافر إلى الحجاز للحج والزيارة فكيف لا يذوب قلب شيخ الهند شوقا إلى البلد الذي وطئ أرضه محمد ﷺ حبيب كل مسلم ونشق هواءه وشرب ماءه، فأراد أن يمشي من حيث مشى الحبيب ويشهد مكان المعركة ويقف على أحداث الشهداء.

سفر شيخ الهند للزيارة ووصوله إلى المدينة المنورة:

عزم شيخ الهند على السفر إلى الحجاز غير أنه لم يهتم بإخبار الناس، وبما أنه كان يخاف أن يلحق لأجل سفره ضررا لمستوى تعليم الجامعة فانعقدت حفلة في فصله الدارسي المعروف بـ"نودرة" قبل خروجه، وحضر الحفلة كل من طلاب الجامعة وأساتذتها وموظفيها، فتحدث إليهم قائلا "وإنما أتوجه إلى الحجاز لأتشرف بزيارة الحرمين الشريفين، ومن الصعب عليّ تحديد الموعد للعودة إلى الوطن أتمكن من الرجوع إلى الهند إلا أنني لن آلو جهدا في أن أرجع إليكم في أسرع وقت ممكن."[٧]

سافر شيخ الهند في عام ١٩١٥م للحج والزيارة، فوصل أولا إلى مكة المكرمة أقام بها مدة، وفي أثناء قيامه قابل غالب باشا الأمير التركي، وأخبره بخطته للجهاد وعن نشاطات المجاهدين في شمال الهند ضد الاستعمار البريطاني بقدر من التفصيل والتمس منه أن يكتب له رسالة سرية إلى مسلمي الهند في تأييد حكومة التركي

الإسلامي، فكتب له الأمير التركي غالب باشا رسالة من قبل الحكومة التركية الإسلامية إلى مسلمي الهند وهي رسالة تعرف في التاريخ بغالب نامه. [٨] ولكن من سوء الحظ قد علم الحكام الإنجليز بهذه الرسالة بعد ما وصلت الرسالة إلى الهند ثم أراد شيخ الهند أن يقابل مع وزير الحربية والقائد العام للجيش العثماني فوصل إلى المدينة المنورة حيث استقبله التلميذ البار شيخ الإسلام حسين أحمد المدني استقبالا حارا ولازمه ملازمة المتعلم وهو حينذاك شيخ الحديث في المسجد النبوي ولما أراد شيخه المكرم محمود الحسن اللقاء مع وزير الحربية والقائد العام للجيش العثماني الرابع أثناء زيارة المدينة المنورة فهيأ له الشيخ المدني مقابلة أنور باشا وزير الحربية وجمال باشا القائد العام للجيش العثماني الرابع.

قد عبر المجاهد الكبير محمود الحسن عما يختلج في قلبه بعبارة وفاوضهما في طرق إعانة المسلمين في الهند ونفي الإنجليز منها وحصل على رسالة سرية إلى الأمة الهندية والعهد بتأييد القضية الهندية وحث أهلها على مساعدته والثقة به.

ثم سافر شيخ الهند إلى مدينة الطائف ورافقه تلميذه الرشيد حسين أحمد المدني وأقام بها مدة، وكان ذلك العصر عصر الحرب العالمية الأولى، وفي غضون ذلك خرج شريف حسين أمير مكة على الدولة العثمانية وبغى عليها، وقدم إلى شيخ الهند محمود الحسن وأصحابه استفتاء عن تكفير الأتراك، فلما أرسلت النشرة إلى شيخ الهند قال حسين أحمد المدني: إن النشرة تخص علماء مكة والمدرسين بالحرمين وحدهم، وإني رجل أجنبي فلا يجوز لي أن أوقعها أو أكتب فيها شيئا وعزم الشيخ حسين أحمد على أن النشرة إذا أرسلت إلينا مرة أخرى نمتنع عن التوقيع ونأتي بأسباب أخرى، فخلاصة القول رفض شيخ الهند وحسين أحمد المدني عن توقيع النشرة عن تكفير الأتراك، فغضب شريف حسين وأمر باعتقالهم.

وبما أنهم كانوا من ضيوف أعداء شريف لإقامته بالمدينة المنورة فلم تأخذه

مخافة في صب الأذى عليه. فوصل أحد رجال الشرطة إلى المنزل الذي كان يقيم به فطلب شيخ الهند وأصحابه فلم يجد إلا حسين أحمد فاعتقله وجاء به إلى المحكمة الحميدية في مكة المكرمة وأحضره إلى ناظر الشرطة الذي أمر بأن يدخله السجن قائلا، "إنك كنت تسمي حكومة شريف الحكومة الإنجليزية، وكنت تندد بها تنديدا شديدا، فذق عذابك ذلك".[٩]

وأراد ضباط حكومة شريف حسين أن يقوموا بإرسال شيخ الهند إلى شريف حسن الذي قد أمرهم باعتقاله فلم يهتدوا إليه ولما فشلت الشرطة تماما أبلغت الأمر إلى شريف حسن فاستشاط غضبا وأصدر أمرا ، يقول فيه: "إن لم يقوموا بتزويد الشرطة بمعلومات لازمة عن شيخ الهند حتى صلاة العشاء فيجرد المطوف عن الثياب ويشرد ويعزل عن منصبه وأما رفقاء شيخ الهند والآخرون فيهلكون بإطلاق الرصاص عليهم".[١٠]

إن هذا المرسوم الحكومي أثار ضجة شديدة في سكان مكة بلد الله الحرام فأحرم شيخ الهند وخرج لا يبالي بما سيكون وقدم نفسه للاعتقال، وكان نبأ إلقاء القبض على شيخ الهند وأصحابه قد انتشر في الهند كلها، ولكن أهالي الهند لا يعرفون عن الجريمة التي ارتكبوها وبعد شهر واحد نقلتهم الشرطة إلى مصر في ١٨ من يناير عام ١٩١٧م حيث أدخلتهم السجن، وفي اليوم التالي دخل الغرفة الحرس الخاص واستصحبوا شيخ الهند تحت حراستهم، بقي أصحابه الأربعة حيارى متألمين على بؤسهم في هذه الديار الغريبة، فأولا ذهبوا بشيخ الهند إلى مكتب السجن حيث سجلوا اسمه وأسرته وعمره ووطنه وما إلى ذلك من أمور لازمة، ثم ذهبوا به إلى مقر الشؤون الحربية حيث أجلسه على كرسي باحترام بالغ في حجرة ضيقة مخصصة لعمليات الاستنطاق فدخلوا عليه ثلاثة ضباط الإنجليز وكان اثنان منهم يجيدان اللغة الأردية وبدأوا عملية الاستنطاق التي

استغرقت حوالي خمس ساعات فبعد ما سئلوا عن اسمه وأسرته ووطنه كانت الأسئلة لماذا امتنع عن تأييد الفتوى الحكومي الذي أصدره الشيخ عبد الحق الحقاني الحكومة الإنجليزية ولماذا رفض توقيع النشرة التي طرحت عليه من قبل شريف مكة، وماذا يعرف عن نشاطات عبيد الله السندهي واتصاله به وعلاقته معه، هذا وطرحوا عليه أسئلة كثيرة تمس اتهامات كاذبة اخترعها رجال المخابرات السرية من أنفسهم تتصل باجتماعه مع غالب باشا في مكة ولقاءه مع أنور باشا وجمال باشا خلال إقامته بالمدينة المنورة وبحركة خطة الرسائل الحريرية التي كانت تجري في أفغانستان.

وبعد ما انتهت عملية الاستنطاق أعاده إلى السجن، وأدخلوه في غرفة مظلمة حالكة مخيفة وأقفلوا عليه الباب، وبقي شيخ الهند في هذه الغرفة وحيدا منقطعا عن أصحابه صابرا مثابرا، ومضت أيام ولم يكن لأحد من هؤلاء أن يزور الآخر إلا في ساعات يخرجون فيها إلى مكان شاغر يستنشقون الهواء وعندما اقتنع السجّان الإنجليزي بأنهم رجال كرام غير أشرار وذلك بفضل صلاحهم وحسن خلقهم بدأوا يعاملونهم جميعا معاملة تنطوي على الرفق والرحمة.

وبعد ما عاش شيخ الهند وأصحابه الأربعة شهرا كاملا في السجن بمدينة القاهرة أصدر كبار الضباط الإنجليز بقضية الأمر بأن ينقلوا منها إلى مالطة، وكانت مالطة مكانا مجهولا، إن مدينة مالطة جزيرة صغيرة وميناء كبير ترسو به البواخر محملة بالبضائع من دول أوربا، حكمها المسلمون مدة طويلة، ولما انقرضت دولة المسلمين واستولى على الجزيرة المسيحيون عادت إلى سيطرة الإنجليز تعرف هذه الجزيرة كلها باسم مالطة، وفي المدينة قلعة أثرية فسيحة وهي مخصصة للجنود وكبار الضباط، ولما اشتدت الحاجة إلى مكان آمن بعيد عن كل نوع من الأخطار يعتقل به أعداء الحكومة الإنجليزية في هذه القلعة وفيها

أسرى الحرب العالمية الأولى والسجناء السياسيين.

ولبث شيخ الهند مع أصحابه الأربعة - وهم تلميذه النجيب حسين أحمد المدني والحكيم نصرت حسين والشيخ عزيز غل والشيخ وحيد أحمد - في مالطة نحو ثلاث سنوات وشهرين صابرا محتسبا، عاكفا على الذكر والعبادة، منصرفا إلى التربية والإفادة، راضيا بقضاء الله وقدره.١٠ قام في أثناء ذلك بترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيره الموجز باللغة الأردية وكان يعاونه تلميذه الرشيد السيد حسين أحمد المدني في ترجمة القرآن الكريم، وانتهز هذه الفرصة وكان يلاقي شخصيات بارزة ورجال الفكر وأصحاب الدعوة وكبار السياسيين، ويتحدث معهم في الموضوعات الإسلامية والدينية والسياسية والثقافية والتاريخية والأدبية، لأن سجن مالطة كان سجن كبار الشخصيات من الدول التي احتلها الإنجليز ومن الجدير بالذكر أن من أصحابه كان نصرت حسين الذي مرض ومات في مالطة فدفن جثمانه بجزيرة مالطة وكانت له صلات وثيقة بشيخ الهند.١١

وبما أن شيخ الهند قام بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأردية وهي لغة الهند، وكانت له براعة في علوم القرآن والحديث ودواوينه ولاسيما صحيح الإمام البخاري، فكان من بركات التدبر والإمعان في معرفة الكتاب العزيز أن فتح الله عليه أسرار تراجم صحيح البخاري ودقائقها، فقام بشرح معضلات التراجم لبعض أجزاء الصحيح شرحا يأخذ بمجامر القلوب ويهتز له كبار العلماء وما أن يتم هذا العمل إذ أطلق سراحه من السجن فودعهم ضباط السجن ورئيس وزراء تركيا وشيخ الإسلام خير الدين آفندي وغيرهم وقد ترقرقت دموع الحب والإخلاص في أعينهم.

انطلاقه من سجن مالطة وقدومه إلى الهند:

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى صدر الأمر بإطلاق سراحهم ٣ في ديسمبر عام ١٩٢٠م فوصل هذا البطل العظيم المجاهد الكبير مع أصحابه الثلاثة

إلى مومباي، فاستقبلهم جم غفير من المواطنين الهنود استقبالا حارا، وتهافت الناس لاستقبالهم وزيارتهم بما فيه العلماء الكبار والسياسيون من أمثال الطبيب مختار أحمد الأنصاري والزعيم البارز جوهر علي وشوكت علي ومهاتماغاندي وغيرهم، فاحتفل هؤلاء العلماء والسياسيون احتفالا كبيرا لتقدير واعتراف خدماته الجليلة ومجهوداته النبيلة في سبيل تحرير البلاد ولقبوه في هذه الحفلة شيخ الهند حتى غلب لقبه على اسمه واشتهر به بعد ذلك في العامة والخاصة.[١٢]

وبعد مدة إقامته في مومباي أراد شيخ الهند أن يزور أهله ومدينته التي ولد فيها ونشأ وترعرع، فوصل الشيخ إلى دهلي حيث استقبله عدد كبير من أهالي ديوبند وطلاب الجامعة وأساتذتها على محطة دلهي، وهناك نزل في منزل الطبيب الأنصاري يوما أو يومين ثم قصد إلى ديوبند فتهافت الناس لاستقباله على كل محطة في سفره وقدم المسلمون بمدينة ميرت كلمة تحية وترحيب على محطة المدينة قرأها رجل منهم داخل القطار واقفا ووزعت نسخها المطبوعة وأعربوا عما أصاب المسلمون في الهند من قلق واضطراب وشكروا على مجهوداته في سبيل الإخراج عنه، وأثنوا على صدقه وعزمه الأكيد وثباته في هذه المصائب وتألمه لآلام المسلمين ومساعيه الجبارة لتحرير البلاد من أيدي الإنجليز فرد على كلمة التحية والترحيب هذه من قبل شيخ الهند تلميذه النجيب الشيخ حسين أحمد المدني واقفا على باب القطار فبعد شكر المسلمين في الهند على مودتهم الأخوية له وقال "إن المصائب مهما كانت جليلة فإنها مقدرة من الله، وإنه لن يصيب العبد إلا ما أصابه الله به. وصرح أن ذكر المصائب التي ألمّت بشيخ الهند وبالمسلمين فيما مضى من الزمان لا يعود بفائدة ما".[١٣]

وصل القطار إلى محطة ديوبند وعلى كل محطة رحب به الناس واستقبله استقبالا حارا وهكذا وصل هذا السجين من جزيرة مالطة إلى وطنه بعد أن أمضى

خمس سنوات فازدحم الناس لاستقباله.

وبعد رجوعه عام ١٩٢٠م إلى الهند بدأ يساهم في سياسة الهند كل المساهمة، وكان يجول في أنحاء مختلف البلاد ويحث المسلمين على التعاون مع حزب المؤتمر في حركة عدم المولاة ضد الحكم الإنجليزي، فحاضر وخاطب في مختلف أرجاء الهند، فاستيقظت مشاعر وانتهبت عقول وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد، وقد شارك شيخ الهند في جميع النشاطات للجامعة الملية الإسلامية وفي مقاومة مظالم واستبداد الإنجليز فأسس الجامعة الملية الإسلامية في دلهي وترأس الدورة السنوية لجمعية علماء الهند إلى أن وافاه الأجل المحتوم في عام ١٩٢٠، ودفن بمدينة ديوبند في جوار أستاذه الشيخ محمد قاسم النانوتوري وقرب أبيه ذوالفقار علي الديوبندي.

فخلاصة القول إن حياته كلها مملؤة بالجهد والكفاح في سبيل تحرير البلاد عن براثن الإنجليز وفي إصلاح المجتمع وفي إيقاظ المسلمين وفي توحيد الناس.

وإن الخطة التي أعدها شيخ الهند لتحرير البلاد تمثل فصلا ذهبيا في تاريخ حركات التحرير الوطني والأبطال من العلماء الذين أعدهم شيخ الهند للجهاد ضد الاستعمار البريطاني والدور الذي لعبوا في تحرير الوطن من براثن الأجانب يستحق أن يكتب بماء من ذهب، وإن شيخ الهند هو سراج منير يضيئ الطريق للجيل الحالي وللأجيال القادمة، وحياته كلها درس لرواد في ميدان الكفاح والنضال.

فمن له أدنى إلمام بتاريخ الهند الحديثة فلا يخفى عليه أن شخصية شيخ الهند كانت متنوعة النواحي لا يوجد لها نظير في تاريخ الهند الحديثة، فكان محمود الحسن أحد القادة السياسيين والمصلحين والأبطال في معركة تحرير والوطن العزيز.

سيرته وأخلاقه:

كـان شيـخ الهنـد كثيف الـلحية في توسط، غير متكلف في اللباس، فياض الـخـاطـر، جبـل الـعـلـم وقـورا في المشي والكلام، كلما يتكلم كأن العلم ينفجر من جوانبه، والفكر يفيض من كلامه، تلوح على محياه إمارات التواضع والهم وتشرق عـلـى جبينه أنوار الـعبادة والـمـجـاهـدة في وقار وهيبة مع بشاشة وانبساط مع التلاميذ والأصحاب.

وكان شيخ الهند جامعا بين العلم والعمل، مشتغلا بالتدريس والتحديث.[١٤] مـجـاهـدا في سبيل الله، دائم الاشتغال بالخيرات واكتساب الحسنات في تواضع قـلما يوجد في أهل العلم مع توارد التصوف والقيام أمام الفتن والحركات الهدامة، اعترف بفضله الأقران وكان شديد البغض للإنجليز.

وكـان إلـى جانب تضلعه في التدريس عاملا في الحقل السياسي سرا بقوة إرادة وعـزم صـميـم، وجـال فـي طول الهند وعرضها يشترك في جميع النشاطات الاجتـمـاعية والسيـاسية والـحركات الإسلامية. وكان من عاداته أن يسهر الليالي الطوال ويحتفظ بأوقاته، ويحيى الليل في الدراسة والمطالعة وتلوح عليه إمارات الفرح والسرور والتواضع وإكرام الوافدين وقضاء لحق الزائرين السائلين.

فـخـلاصة الـقول كانت شخصية شيخ الهند مجموعة مثالية لكثير من القيم الـنبيلة العليا. منها ما برزت كعادة وهي الاستغناء عن الدنيا، كما يقال استغن عن الدنيا فتسرع الدنيا إليك.

كانت شخصية شيخ الهند مثالا وافيا رائعا للحقيقة المعترف بها عاما فإن الـمال والمنصب والعزة والكرامة كلها تابع للإنسان، وليس الإنسان تابعا لأي منها إذا علا الإنسان بإنسانيته حصل له كل شئ.

هـذه هي نبذة يسيرة من حياة شيخ الهند الحافلة بالمكارم والمحاسن في ميادين العلم والدين والدعوة والجهاد. وكان يصدق قوله النبيﷺ من تواضع لله رفعه الله.

الحواشي والهوامش

١ الهدية السنية، ص. ١٠، ذوالفقار على الديوبندي

٢ حضرت شيخ الهند حيات اور كارنامى، ص. ٤٦، مولانا أسير أدروي

٣ سوانح قاسمي، ص. ٢٢٦

٤ اسيران مالتا، ص. ٢٣، مولانا سيد محمد ميان

٥ نزهة الخواطر ج ١٨، ص. ٤٦٦، سيد عبد الحي

٦ تاريخ دار العلوم ديوبند ج ٢، ص. ٣٥

٧ مجلة الداعي، ص. ٣٠، يونيو ـ يوليو، ١٩٩٧

٨ حضرت شيخ الهند حيات اور كارنامى، ص. ٢٠٤، مولانا أسير أدروي

٩ مجلة الداعي، ص. ٣٤، يونيو ـ يوليو، ١٩٩٧

١٠ اسيران مالتا، ص. ٦٦، مولانا سيد محمد ميان

١١ مجلة الداعي، ص. ٢٣، اكتوبر، ١٩٩٩

١٢ نزهة الخواطر ج ٨، ص. ٤٦٧ ـ ٤٦٨، سيد عبد الحي

١٣ مجلة الداعي، العدد ٦ ص. ٢٦، اكتوبر، ٢٠٠١

١٤ نزهة الخواطر ج ٨، ص. ٤٦٦، سيد عبد الحي

الفصل الثالث

شيخ الهند وآثاره العلمية ومكانتها

لايخفى على من له إلمام بسيط بالعلوم الإسلامية وخاصة بعلوم الحديث المكانة الرفيعة من العلم التي بلغها شيخ الهند، وقد أكرمه الله تعالى بأنواع من الكفاءات والمواهب العلمية والأدبية، فألف صاحبنا هذا كثيرا من الكتب حول المواضيع الإسلامية باللغة الأردية التي تدل على براعة العلمية وشغفه بالقرآن والحديث النبوي عامة ودقة نظره في مذاهب الأربعة الأئمة خاصة، ولو كان شيخ الهند قليل الاشتغال بالتأليف والتصنيف بالنسبة إلى غزراة علمه وكثرة دروسه، فأول كتاب ألف شيخنا الفاضل هو.

(١) **الأدلة الكاملة (بالأردية)**: يعرف أيضا هذا الكتاب باسم إظهار الحق، وهذا كتيب صغير ألفه في ريعان شبابه، ولذلك نرى أن فظاظة الأسلوب وشدة الشباب تبدو جلية في مقدمة الكتاب، إلا أن الذي يميزه من بين أقرانه والآخرين والمؤلفين أن في هذا الكتاب ليس من النقص وكان وفقا لمقتضيات الدراسة مثل سائر مؤلفاته يعد أغزرها مادة، وأنصعها أسلوبا وأجزلها عبارة.

خلفية تأليفه: إن الحاجة التي دعت إلى تأليف هذا الكتاب هو أن أحدا من كبار العلماء من جماعة أهل الحديث قام بنشر وتوزيع نشرة وتحدى أتباع الإمام أبي حنيفةؒ في الهند. وأعلن أن عالما حنفيا إذا تمكن من تقديم أدلة من الكتاب والسنة الصحيحة الثابتة عشر مسائل من الفقه الحنفي من أمثال، عدم رفع اليدين في الصلاة، وعدم وجوب قراءة الفاتحة على المقتدي والتأمين سرا وغيرها من المسائل المختلفة فإنه يدفع إلى ذلك العالم عشر روبيات عن كل

مسئلة، فشمر شيخ الهند عن ساق الجد بإذن من شيخه النانوتوي وأتى بإجابة علمية مقنعة بعبارة وجيزة، ويبدو أنه قام برد إلزامي على كل اعتراض ولكنه يتضمن إجابة علمية، بل أجاب لكل سؤال إجابتين ولم يقتصر شيخ الهند على ذلك، بل ألحق في آخر الكتاب أحد عشر اعتراضا قويا على مذهب أهل الحديث فلما طالع هذا الكتاب الشيخ النانوتوي فأعجبه كثيرا وقام بطبعه وشجع شيخ الهند في مجال التأليف والتصنيف.

(٢) **إيضاح الأدلة (بالأردية)**: قد ألف شيخ الهند هذا الكتاب أيضا في رد كتاب مصباح الأدلة لدفع الأدلة الذي ألفه الشيخ محمد أحسن الأمروهي، فقام بشرح وتفصيل رائع لما كان قد أودعه في كتيبة "الأدلة الكاملة" وأثبت كل ما قال من أدلة وبراهين قاطعة في إيجاز وأجاب فيه على اعتراضات الشيخ البتالوي كما أشار إلى أخطاء فاحشة تعرض لها البتالوي وسماه، إيضاح الأدلة.

ومن عادات شيخ الهند أن يؤلف هذا الكتاب في الليل، ولما انتهى من الدراسة ومطالعة الكتب في النهار يعرض كل ما كتبه في الليل على الشيخ النانوتوي، فكان يصلح ويشير إلى بعض النكات العلمية.

أهمية الكتاب: فالكتاب نموذج رائع لما اختص صاحبه في خصوص شرح الأحاديث والروايات المتعارضة والتوفيق فيما بين مسائل المجتهدين المختلفة.

فإذا طالعنا هذا الكتاب ما أودعه فيه شيخ الهند من بحوث غالية حول قراءة الفاتحة، ونفاذ قضاء القاضي ونكاح الحرمات من النساء، وزيادة الإيمان ونقصانه فنظن أن الله قد ألهمه على قلب شيخ الهند وشرح صدره على ذلك، فالكتاب يحتوي على ٤٠٠ صفحة وله شهرة واسعة في الأوساط العلمية، والكتاب هذا خير دليل على سعته في العلوم وطول باعه في المعارف ولو لم تكن له مأثرة علمية أخرى.

(٣) أحسن القرى في توضيح أوثق العرى (بالأردية): إن هذا الكتاب يتعلق بجواز صلاة الجمعة في القرية وعدم جوازها، إن الحاجة التي دعت إلى تأليف هذا الكتاب هو الفتوى الذي أصدره عالم من طائفة أهل الحديث بمدينة دلهي بأن الجمعة لا تخص مكانا دون مكان، وبأنه إذا اجتمع رجلان في مكان وصليا الجمعة فجازت، وكان فيمن وقع على الفتوى رجل يصف المذهب الحنفي بأنه هوى من أهواء الشيطان، فلما عرض الفتوى على الفقيه الرباني الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي فقال أن الفتوى يتنافى مع الحق وقام بالرد عليه وألف كتبه باسم أوثق العرى، ثم قاما عالمان من طائفة أهل الحديث الأول محمد سعيد البنارسي الذي وضع كتابا مستقلا في الرد عليه والثاني هو ظهير الحسن الأعظمي الذي ألف رسالة الجمعة وبما أن الكتابين الذين أعدهما البنارسي والأعظمي كانا يحتويان على كلمات سيئة للغاية بالنسبة إلى المذهب الحنفي، فهذه الأسباب اضطرت صاحبنا أن يؤلف هذا الكتاب فجاء شيخ الهند بدعواه مدعمة بالأحاديث الصحيحة في خصوص القضية، وأثبت في هذا الكتاب بأن الرسول ﷺ لم يقم صلاة الجمعة في القرى والأرياف في طول حياته وكذلك لم يوجد أي نظير في الصحابة والتابعين.

أهمية الكتاب: يمتاز هذا الكتاب الضخيم عن الكتب الأخرى لشيخ الهند بسذاجة الكلمات، وسلاسة العبارة، وظرافة القريحة، يذكر فيه استشهادا على دعواه بجانب الأحاديث النبوية وأقوال المحدثين العظام وعلماء الإسلام وأقوال الأدباء الكبار من العرب وأمثالهم السائرة في حين لآخر، فنراه يزيد من حلاوة الأسلوب بشعر من العارف الشيرازي طورا وطورا وآخر يأتي بأشعار من ذوق وغالب، وهكذا يجعل الأذكياء من العلماء يتحرون لما يشرح ماكان قد خفى عليهم من حقائق غامضة معاني دقيقة في أوثق العرى لأستاذه الكنكوهي فإن هذا الكتاب يدل على علو كعبه، ووسعة نظره وقوة استشهاده كما يدل على ذكاءه

الباهر وذهنه الوقاد وأسلوبه الأخاذ.

(٤) **جهد المقل في تنزيه المعز والمذل:** يحتل هذا الكتاب القيم مكانا بارزا من بين الكتب التي ألفها شيخ الهند، فالكتاب يتعلق بمسألة قدرة الله تعالى على الكذب والدفاع عن الاتهامات على الشيخ إسماعيل المستشهد في بال كوت، فتناول شيخ الهند في هذا الكتاب أسلوبا عقليا من جانب، ومن جانب آخر يدور الحديث حول رجال من مهرة العلوم العقلية ولأجل ذلك نجد أن شيخ الهند يأتي في هذا الكتاب بأدلة واضحة وبراهين قاطعة في ضوء العلوم العقلية، وشرح الأمور الحنفية النظرية شرحا علميا من أجلى البديهات، فقد انكشف الغمام واتضح جليا مدى تضلعه المدهش من العلوم العقلية بجانب له براعة كاملة في العلوم النقلية.

والأمر الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب هو نفس السبب الذي اضطر صاحبنا إلى تأليف معظم كتبه، قد اتهم بعض من العلماء على الشيخ إسماعيل الشهيد وأصحابه وخالفه عقيدته، في قدرة الله تعالى في إمكان الكذب وقالوا إن معتقداته ليست لها علاقة بالإسلام، فألف شيخنا هذا الكتاب وأثبت فيه أمورا في ضوء علوم عقلية ونقلية واستشهد من الكتاب والسنة وأوضح ما هي عقيدة الإسلام الصحيحة في هذا الصدد، وماهو موقف الدين النقي الطاهر.

(٥) **ترجمة الكتاب المقدس بالأردية:** إن صاحبنا شيخ الهند أراد أن ينقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية تحقيقا لرجاء متتابع من بعض علماء الإسلام ومنهم الشيخ عبد الرحيم الرائيفوري الذي كان يحلم أن تكون ترجمة سهلة للقرآن الكريم لعامة المسلمين وهدفا أن يجعل فهم القرآن الكريم سهلا لكل المسلمين الذين لهم معرفة باللغة الأردية، فبدأ شيخ الهند أن يترجم على منهج الشاه عبد القادر الدهلوي، ولم يأت بترجمة جديدة، بل أدخل التعديلات على ترجمته وصبغها في قالب الأردية الفصحى المتطورة كما ذكر بعض النكات

المفيدة في الهوامش، وبتوفيق الله إنه ترجم القرآن إلى الجزء السادس من بداية الكتاب في الهند حتى شاء له القدر أن يسافر إلى الحج والزيارة حينما اعتقله الإنجليز وسجنوه بمالطة فبدأ يترجم هناك الأجزاء الباقية في سجن مالطة بكل دقة وإمعان من غير أن ينظر في الكتاب ويرجع إلى التفاسير والمراجع، وانتهى من هذه الخدمة الجليلة بفضل الله وعونه في شهر شوال عام ١٣٣٦ للهجرة.

وقد أودع في بداية الترجمة مقدمة مبسوطة تحتوي على علوم دقيقة ومعارف بديعة، والمقدمة من حيث شأنها رسالة علمية أوضح من خلالها نكتا علمية غالية وأسرارا دقيقة تدل على ما كان يتضلع منه الشاه عبد القادر الدهلوي من براعته في العلوم الإسلامية وتفقهه في الدين وعلى ما تتجلى به ترجمته من ميزات حسنة، وقد كشف عن أمور وضعها خلال ترجمته بالتعديل على الترجمة القديمة، فهذه هي أول ترجمة باللغة الأردية الفصحى تمتاز من خصائصها الفنية وميزاتها الأدبية الحديثة، فنالت هذه الترجمة شهرة واسعة في الأوساط العلمية والدينية وكذلك في الحلقات الأردية الأدبية، ومن حسن حظها أن المملكة العربية السعودية قد اختارت هذه الترجمة وطبعت بطباعة جيدة ووزعت في أرجاء من شبه القارة الهندية في عصرنا هذا.

(٦) **الأبواب والترجمة:** كانت لشيخ الهند بجانب براعته في علوم الحديث مناسبة خاصة بأصح الكتب بعد كتاب الله، الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكانت له معرفة تامة بطياته وغوامضه، ودقائق أسراره وحقائق معارفه فكان يتمتع بحلاوة تفوق كل نوع من الحلاوة بدرسه وتدريسه.

فلما انتهى شيخ الهند من الترجمة بكتاب الله تعالى في الأيام التي عاشها سجينا بجزيرة مالطة، أراد أن يترجم يشرح بأبواب البخاري، فبدأ يترجم الأبواب الجامع للبخاري إلى اللغة الأردية الفصحى بأسلوب سهل متين،

وماكانت لديه إلا نسخة للجامع للبخاري مطبوعة من مصر بدون الهوامش، ولكنه لم يتمكن من معالجة القدر الذي كان يريده أن يتناوله بالكتابة، بل وإنما يتناول سبعة وستين بابا من الجامع الصحيح إذ أطلق سراحه، بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى، ولما رجع إلى وطنه الهند لم يجد من عمره إلا خمسة أشهر قضاها في النشاطات السياسية والمرض والضعف حتى وافاه الأجل وحالت دون ما نوى، فبقي هذا الكتاب غير مكمل.

فخلاصة القول إن هذا الكتاب مأثرة علمية أخيرة لشيخ الهند ومن الجدير بالذكر أن كل هذه المؤلفات لشيخ الهند كثيرة النفع فيها توجد أبحاثا بديعة من علم الحديث وتفصيل لآراء الأئمة المجتهدين.

(٧) **قيامه بتصحيح السنن لأبي داؤد:** ومما لا شك فيه أن هذا العمل خدمة جليلة للحديث النبوي، فقد أراد شيخ الهند أن يقوم بإعداد نسخة صحيحة معتمد عليها بعد دراسة عميقة لكثير من نسخة الخطية والمطبوعة قديما وجديدا ومقارنة دقيقة فيما بينها، فكان من عادته أن يستصحب نخبة من الخرجين الجدد، ويضع هذه النسخة كلها أمامه وينقطع إلى تصحيحها بدقة فيقوم بإصلاح الأخطاء التي كانت تطرقت إلى هذه النسخ في عبارتها أو إعرابها، ويضع إشارات في القواعد والإملاء والخط ويكتب الكلمات الزائدة التي تسربت إلى سنن أبي داؤد على غفلة من الناسخين في الهوامش، ويزيد إليه ما فات الكتاب من كلمات وعبارات، ويستعين في ذلك بدواوين الحديث الأخرى وشروحه العربية الموثوق بها فاستطاع بجهود طويلة واجتهاد متواصل أن يعد نسخة صحيحة الكتاب، هذا ما يدل على براعته ومناسبته في علم الحديث.

(٨) **الفتاوى التي أصدرها شيخ الهند:** إن الفتاوى التي أصدرها شيخ الهند في مختلف من الزمان لم تضبط في كتاب، لأنه كان الشيخ لا يعد نفسه أهلا لذلك غاية في

التواضع، ولو أن الفتاوى التي أصدرها شيخ الهند تبلغ آلافا ولكنها لم تضبط في كتاب أو مجموعة أما الفتاوى التي أصدرها الجامعة بتوقيعه وتصديقه، وكان من عادته أن يكتب على الفتوى، الجواب صحيح، المصدق العبد محمود عفا الله عنه.

(٩) **الإفادات المحمودية:** وله رسالة تتعلق بشأن الوحي وعظمته وحول مسئلة الإيمان والأمانة.

(١٠) **مكتوبات شيخ الهند:** قد تبادل شيخ الهند رسائل كثيرة إلى العلماء والصلحاء والأساتذة والتلامذة في طول حياته وخاصة بعد ما دخل في مجال السياسة، فطبعت رسائله باسم مكتوبات شيخ الهند.

إن هذه الآثار والمؤلفات لشيخ الهند تدل على براعة علمه وسعة نظره وعلى خدماته الجليلة في مجال الدين والعلم.

الباب الثاني

الأعمال السياسية لشيخ الهند بخصوص إيقاظ الهنود

الفصل الأول:

مجهودات شيخ الهند لتحقيق الوحدة الإسلامية

الفصل الثاني:

الإسلام وحب الوطن كما مارسه شيخ الهند

الفصل الثالث:

نظرية شيخ الهند بخصوص العلمانية والتعايش السلمي

الفصل الأول

مجهودات شيخ الهند لتحقيق الوحدة الإسلامية

من له أدنى إلمام بتاريخ الهند الحديثة ذات الثقافة المركبة، فلا يخفى عليه أن شخصية شيخ الهند كانت متنوعة النواحي لا يوجد لها نظير في تاريخ الهند. فكان محمود الحسن الملقب بشيخ الهند أحد القادة السياسيين والمصلحين والأبطال في معركة تحرير الوطن العزيز. إنه كان من أتباع الشيخ محمد قاسم النانوتوي في التجدد وإصلاح عامة الناس، قد صاحبه ورافقه طويلا. فأخذ فكرته ونظريته على الدين والسياسة، وورث منه كراهية الاستعمار الإنجليزي وفكرة الجهاد ضده. ولا شك في أن الحرية والاستقلال لهما صلة وثيقة بفطرة الإنسان، من أجل ذلك بذل الإسلام منذ ظهوره كل ما لديه من الوسائل في القضاء على العبودية والاستعباد، وحمل رسول الله ﷺ لواء الجهاد والحرية ضد هذه العملية. وجهد جهدا متواصلا في سبيل تحرير المسلمين الذين كانوا تحت العبودية.

إن تأثير الأستاذ محمد قاسم النانوتوي قد أدى دورا فعالا في تكوين شخصية شيخ الهند وتوفير المواد الهامة، وتقويم الفكر الجامع على المنهج الصحيح حتى أصبح خليفة له، وحمل دعوته وكرس حياته كلها للدعوة الإسلامية وإصلاح الدين، وقام بمحاولات كثيرة في مجال الدعوة وإصلاح المجتمع وإيقاظ المسلمين من سباتهم العميق وتوحيد صفوف المسلمين والهندوس ضد الاستعمار البريطاني.

إنه كان مصلحا كبيرا في تاريخ الهند يؤمن بالتربية، لأن التربية لها دور كبير في جعل الأفراد وتثقيف الناس وإصلاح المجتمع وأنه كان يعتقد أن الإصلاح يأتي بالأفراد، فإذا صلح الناس صلح المجتمع بنفسه، وأن الإصلاح الاجتماعي هو

المصدر لكل الإصلاح على سبيل المثال، الإصلاح الأخلاقي والديني والسياسي، وكان العصر الذي عاش فيه شيخ الهند عصرا مليئا بالأحداث والوقائع مثيرا للخواطر فلم يكن من شأنه أن يجلس في غرفة الدراسة منعزلا عن الدنيا وعن أحوال المسلمين. وعلى الرغم من حبه للتدريس والإفادة لم يكف عن المساهمة في الكفاح ضد الاستعمار البريطاني الغاشم لتحرير البلاد.

قد اتجه شيخ الهند إلى الإصلاح التربوي والثقافي والديني بعد ما رأى أن العلماء الأبرار والمجاهدين الكبار الذين أسسوا هذه المدرسة كمركز لمقاومة الاستعمار البريطاني ولجعل الأفراد لإنقاذ الوطن من براثن الاستعمار قد فاتوا ولم يبق منهم إلا من شاء الله، فبدأ شيخ الهند يفكر في بقاء هذه المدرسة. فرأى أن المتخرجين من هذه الجامعة إذا اجتمعوا على مسرح واحد وانسلكوا بالجامعة وأفكارها القومية والسياسية والإصلاحية، ثم انتشروا بتعاليمها ورسالتها في كل ناحية من أنحاء البلاد، فمن الممكن أن تحقق الجامعة الإسلامية أهدافها المنشودة التي من أجلها قامت، وهي الحفاظ على بقاء الحياة الإسلامية ومكافحة تيار الغرب وثقافتها، وإشعاع فكرة الجهاد وتجديدها في النفوس، فلا بد أن تكون لهؤلاء المتخرجين جمعية وندوة بواسطتها ليتمكن هؤلاء الشباب المتخرجون من نشر العلوم الإسلامية في العالم كله. وإيقاظ المسلمين ونهوضهم ضد الاستعمار البريطاني وتوحيد المسلمين الهنود على منصة واحدة.

فبدأ يفكر في تأسيس جمعية تكون رابطة عظيمة الأهمية فيما بين هؤلاء المتخرجين في الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، فعبر عما كان يريد على أصحابه فكل منهم اتفقوا على هذا الرأي ووعدوا أن ينصروه ويبذلوا كل ما في وسعهم في سبيلها. فدخل شيخ الهند على أستاذه الشيخ محمد قاسم النانوتوي وأخبره عن هذا كله، ففرح الشيخ محمد قاسم النانوتوي من هذه الفكرة وأثنى عليه ثناءا كثيرا وسمى بنفسه هذه الجمعية "ثمرة التربية" نظرا إلى هذه الأفكار التي كان

يـريـد أن يـغرس في قلوب الطلاب وإلى هؤلاء الشباب المتخرجين هم ثمرة لجهوده ومحاولته كما كان يحلم منذ ثورة عام ١٨٥٧م فهذه الجمعية تكون أول ثمرة أثمرت الشجرة التي غـرسهـا وهـو ينظر إليهم بنظر المستقبل، فلم يمض أكثر من أسبوع حتـى خرجت جمعية "ثمرة التربية" من حيز التفكير إلى حقيقة الوجود تحت زعامة شيـخ الهند وعاونه الشباب المتخرجون من الجامعة كأعضاء وهم ثمانية عشر، ومن الأهـداف الهـامة لهـذ الجمعية هي التعاون المالي للجامعة عند الحاجة والمساهمة في ارتـقاءهـا وازدهـارهـا. وإبـلاغ رسـالتهـا فـي كـل طـائفة من المسلمين الهنود. ومن الـنـاحية الفكرية هذه الجمعية تهدف إلى جعل الأفراد ومقاومة الاستعمار البريطاني لتكون تلافيا لثورة عام ١٨٥٧م .١

كـان شيـخ الهـنـد يريد أن يوقظ المسلمين على دينهم وثقافتهم ويوحدهم في صف واحـد ونهـوضهم ضد الاستعمار البريطاني، وكان يريد أن يربي هذه الجماعة مـن الـمـثـقـفيـن تـربية خـاصة ويـغـرس فيهـم روح الدين وحب الجهاد لأنه يرى أن الـتـربية هي الوسيلة الـوحيدة لـلـنهـضة واليـقـظة، فـملأ شيخ الهند في قلوبهم حب الـوطـن وحـب الجهاد ضد الإنجليز الذين يحكمون وطنه حكما جائرا. ورفع صوته ضـد الاستبـداد البـريـطـاني، ودعاهم إلى الوعي القومي ومكافحة الظلم والطغيان. وبـدأ يـنـفـخ الـحـب للحرية في نفوس الناس. ولكن مع الأسف الشديد أن عمر هذه الـجـمـعية كـان قـصيرا، فإنها تفككت سريعا عندما توفي عميدها الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، وانتشر أعضاءها في مختلف الأماكن واشتغلوا بالمشاغل الأخرى.

وكـان شيـخ الهـنـد ثـابت القدم راسخ العقيدة في فكرته وعمله، فلم يكف عن عـمـلـه وجهـوده فـي تـحـقيق الوحدة الإسلامية وظل يحاول عن طريق أو آخر في إيـقـاظ الـمسـلـميـن، وكـان يـنـفـخ روح حب الدين وفكرة الجهاد من خلال دروسه ويجعل الأفراد للكفاح والنضال ضد الحكومة الإنجليزية. فكان من عاداته أن يلقي الدرس على حب الوطن ويحث الطلاب على الجهاد فعندما وجد شعلة الجهاد وروح

الإطاعة والإيثار في طالب يختاره ويبايعه على الجهاد في سبيل الله.٢

وبدأت جمعية "ثمرة التربية" تضمحل ثم توقفت في الهند فيما بعد ولكن نشاطاتها كانت تجري في مناطق السند. ومن المعلوم أن الطلاب من هذه المناطق يقصدون إلى دار العلوم ديوبند ويتعلمون فيها، ويتأثرون بشيخ الهند وبأفكاره الملية والإسلامية والسياسية تأثيرا كبيرا، بعد تخرجهم من دار العلوم رجعوا إلى مناطقهم وقاموا بإنشاء المدارس والمكاتب والمراكز للمقاومة،- وكان لهذه المدارس والمراكز فضل كبير في نشر الدين والدعوة الإسلامية والحفاظ على تعاليم الإسلام وبقاء الثقافة الإسلامية في هذا المناطق- وإن هؤلاء الشباب المثقفين حاملي رسالة الإسلام ودعوة الحرية انتشروا في هذه المناطق وبدأوا يدعون الناس إلى دينهم ويوحدون ويوقظون المسلمين وينفخون في قلوبهم روح حب الدين والجهاد. حتى قاموا بحركة الجهاد في السند وعلى رأسهم غلام محمد دين بوري وربطوا صلاتها مع شيخ الهند.٣

وعندما تخرج الشيخ عبد الله السندي رجع إلى وطنه وانضم إلى هذه الحركة وربط هذه الحركة بشيخ الهند حتى أصبحت قوة سياسية في منطقة السند وله فضل كبير في تحريض الناس على الجهاد فتبلورت فكرة الجهاد ضد العدو المغتصب، وقد اجتمع حوله بعض المخلصين الشجعان الذين لم يعرفوا اليأس والخوف، فامتلأت قلوب الناس بحرارة الإيمان وشعلة الجهاد فطوبى لهؤلاء العلماء الذين ضحوا بأنفسهم وأعمالهم وبكل مافي وسعهم من الطاقات والثروات في سبيل تحرير الوطن واستقلالها.

جمعية الأنصار: وفي عام ١٩٠٩م قد أسس شيخ الهند جمعية أخرى تمثل المتخرجين من دار العلوم ديوبند باسم جمعية الأنصار، وذلك لمواصلة حركته السرية لتحرير الوطن. وكلف أحد تلاميذه الأبرار الشيخ عبيد الله السندي تنظيم شئونها، يكتب الشيخ عبيد الله السندي في هذا الصدد "وفي عام ١٩٠٩م طلبني شيخ الهند إلى ديوبند فأخبرته بكل ما كانت تجري من نشاطات المجاهدين في

السند فأمرني أن أقيم في ديوبند وأتولى أمور السند منها. فهكذا كنت مشغولا في أمورجمعية الأنصار لأربع سنوات تقريبا.٤

وكانت هذه الجمعية جديدة لعامة الناس، فأراد شيخ الهند أن يعرف بها العلماء الكبار والمسلمين الهنود مع إلقاء الضوء على حاجتها وأهميتها، لأنه يعتقد أن "جمعية الأنصار" خير وسيلة تنهض بالشعب المسلم الهندي وترفعه إلى مستوى الأمم الناهضة مع الاهتمام بالتعليم الديني ورأى شيخ الهند أن ضعف المسلمين مصدر جمودهم وتدهورهم وتخلفهم عن فهم الأركان الإسلامية للأخلاق والإسلامية التي نص عليها القرآن الكريم فإنهم فقدوا الإيمان بالله لأنهم أخذوا اسما واكتفوا به علما ورسما وورثوا عن الآباء والأمهات صورعبادات لا يحرك بصدرهم شيئ معناها والمسلمون فقدوا الثقة بأنفسهم ولم يوجد لديهم أمل في نهوض بلادهم. فانسل ضعف العقيدة والجهل بالدين في صفوف المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا من عصم الله، وهكذا انطفأ مصباح العقل فلا يعرفون رابطة يرتبطون بها ولايهتدون إلى حركة أو جامعة يلجأون إليها، ففي هذه الظروف والأحوال أراد شيخ الهند أن يعرف بهذه الجمعية المسلمين عامة والعلماء خاصة لتكون مسرحا وندوة ولأجل ذلك أراد أن يعقد الجلسة السنوية لدار العلوم التي توقفت منذ سنين لأسباب مختلفة. وقد حضرها كبار العلماء وأناس من كل طبقة. ومن الجدير بالذكر أن قائد حركة التحرير الشيخ غلام محمد دين بوري ومولانا تاج محمد أمروتي حضرا هذه الجلسة. وقد اتفق كل منهم على فكرة شيخ الهند وأدركوا الحاجة لتأسيس جمعية في ذلك العصر. ومن المعلوم أن الشيخ آفتاب على خان الذي كان يمثل مدرسة عليكراه قد حضر هذه الجلسة. فاقترح في خطبته "من الواجب على المتخرجين من دار العلوم ديوبند أن يتعلموا اللغة الإنجليزية ويأخذوا العلوم العصرية من جامعة عليكراه الإسلامية وكذلك من الواجب على المتخرجين من جامعة عليكراه الإسلامية أن يتعلموا اللغة العربية. والعلوم

الإسلامية من دار العلوم ديوبند" وبعد ما انتهت الجلسة بنجاح كامل في الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند بدأ ينضم إلى هذه الجمعية من كبار العلماء أمثال الشاه عبد الرحيم الرائى فوري والمحدث الكبير أحمد حسن والعلامة خليل أحمد وغيرهم كثيرون. ويلقي عبيد الله السندي الضوء على الأثر الذي ترتب على طلاب دار العلوم ديوبند"فثارت عواطف الحماسة في نفوس الطلاب وبدأوا يلتفون تحت لواء "جمعية الأنصار" ويقتربون إلى شيخ الهند" .٥

ومن الأغراض السامية لهذه الجمعية هو إيجاد الجو في البلاد تحت لوائها أراد شيخ الهند أن يجعل الأفراد ويربيهم على الدين والجهاد ضد الاستعمار البريطاني، فكانت أهدافها عبارة عن دعوة إلى الحرب العسكرية التي كان يحلمها السابقون الذين أسسوا هذه الجامعة. فكان شيخ الهند يريد أن يحقق ذلك الهدف عن طريق "جمعية الأنصار" ويريد أن يعيد الشعب المسلم إلى الإسلام من جديد ويغرس روح الدين وفكرة الجهاد في أعضاءها، بذلك استطاعوا الحفاظ على بقاء الحياة الإسلامية ومكافحة تيار الغرب وثقافته. كما قال تلميذه الرشيد الشيخ حسين أحمد المدني في هذا الصدد: "قد أسس شيخ الهند "جمعية الأنصار" من أجل إحداث التنسيق فيما بين عامة المسلمين والوصول إليهم برسالة الجامعة النبيلة، فمن أوائل أعماله التيقام بها شيخ الهند هو توحيد صفوف المسلمين على أساس الكتاب والسنة وإيقاظ الصحوة الإسلامية فيهم.٦

ثم عقدت "جمعية الأنصار" حفلتها الأولى تحت لوائها خارج حرم عن الجامعة في مدينة مرادآباد بولاية أترابراديش في شهر أبريل عام ١٩١١م تحت رئاسة المحدث الكبير أحمد حسن، فقال في خطبته "...إن "جمعية الأنصار" هي جمعية جديدة من نوعها، وليست على نمط جمعية أو منظمة ولا تهدف هذه الجمعية إلى تحقيق غرض دنياوي بل منشودها أن تحقق الأهداف السامية التي يقتضيها الزمن"٧ انتهت هذه الجلسة بكل نجاح ولكن أثارت قلق في الحكومة الإنجليزية لأن مثل

هـذه الـجـلسة لم تعقد من قبل تحت لواء منظمة، فبدأت الحكومة الإنجليزية تراقبها أعضاءها بنظرة الشك والارتياب.

أهـدافهـا ورسالتها: إن جـمـعية الأنـصـار تهـدف إلـى تبـليغ الدين النقي وتعاليم الإسـلام السمحة إلى عامة الناس وتدريس الكتب الدينية في مختلف المناطق الهندية، وتـرويـج الـلغة العربية والثقافة الإسلامية بين المسلمين وعقد الجلسات في كل مدينة مـن الـمـدن الهـندية المختلفة لإيقاظ المسلمين ورفع مستواهم التعليمي، وكذلك تهدف الجمعية إلى تربية خاصة للمتخرجين من دار العلوم ديوبند ليكونوا دعاة ومحتسبين ومـجـاهـديـن في سبيل الله، وكما ذكرنا سابقا أن شيخ الهند يريد أن يوقظ المسلمين ويـوحـدهـم فـي صف واحـد ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن المناسب أن نورد مـقتسبات من هذه الخطبة التي ألقاها شيخ الهند في حفلتها الأولى في مرادآباد، وهذه الخطبة توضح الأهداف والمقاصد التي لأجلها قامت هذه الجمعية، فقال شيخ الهند في خـطبتـه "إن الـحـاجة التـي دعـت إلـى تـأسيـس هذه الجمعية هي الآراء الباطلة التي انتشرت في كل ناحية من أنحاء بلادنا ضد الإسلام والمسلمين، فلا بد أن نقوم بردها بـدلائـل واضـحة وبـراهيـن قـاطـعة فـي ضـوء الـعـلـوم الطبيعية، والقضاء على الفتن الـمـنتشـرة ضـد المسلمين والتهديد على الحركات الهدامة أمثال الآرية وشدهي كرن، فإن جمعية الأنصار لها أهمية كبيرة وأمس حاجة في وقتنا الحاضر وأعتقد أن العلماء الـذيـن يـحملون في جنبهم حمية الإسلام والأخوة الإسلامية يؤيدونها ويبذلون ما في وسعهم في سبيل تحقيق هذا الهدف السامي"[٨]

الـجلسة الثانية: قد اتفق كل من أعضاء هذه الجمعية وعامة المسلمين على رأي شيخ الهـنـد وأحسوا أهميتها وضرورتها في العصر الذي ملئ بالأحداث والوقائع، فأرادوا أن يـقـومـوا بـالـرد عـلـى القضاء على الحركات الهدامة، فأدركوا أن لا ينبغي لهم أن يـعتزلوا عن الدنيا والمسلمين ويجلسوا في غرفة التدريس بل من الواجب عليهم أن يـخـرجـوا مـن مـدارسهـم ويـرتبطوا بالمسلمين ويوقظوهم ويوحدوهم على الكتاب

والسنة، فعزموا أن يبلغوا صوت الجمعية إلى كل مدينة من المدن الهندية فانعقدت الجلسة الثانية تحت لواءها في مدينة ميرت التي استغرقت ثلاثة أيام، ويرأسها حكيم الأمة أشرف علي التهانوي ثم انعقدت حفلتاها الثالثة والرابعة في نفس العام في ولاية شملة، فكل من العلماء الكبار حضروا الحفلتين أمثال العلامة مرتضى جاندفوري والعلامة شبير أحمد العثماني وأحمد حسن وغيرهم كثيرون. وفي مدة قليلة بدأت "جمعية الأنصار" تحقق أهدافها في إيقاظ المسلمين وبدأت تظهر آثار الصحوة الإسلامية والوعي القومي في كل مكان والمسلمون يعودون إلى الكتاب والسنة والناس يرتبطون بهذه الجمعية ويعتمدون على قادة العلماء المسلمين، فجلمة القول إن "جمعية الأنصار" نفخت من جديد روح الإيمان في قلوب المسلمين، فأجرت دماءها في شراييهم، وازدا د إيمانهم وجددت الثقة بأنفسهم وعادت ثقافتهم الإسلامية وأثارتهم ضد الاستعمار البريطاني وأشعلت شعلة الجهاد في الشباب المسلمين، ولو أن هذه الجمعية لم تذكر في حفلاتها عن الاستعمار البريطاني شيئا وكذلك لم وتندد سياسته الفاسدة، ولكن الحكومة الإنجليزية أدركت الخطر وخشيت على يقظة المسلمين وصحوتهم والرجوع إلى دينهم الحنيف وثقافتهم الإسلامية الطاهرة وأخطرت وحدة المسلمين وظنت إذا توحد المسلمون واجتمعوا على مركز واحد، فلا يمكن لها أن تحكم هذه البلاد مدة طويلة، فبدأ الحكام الإنجليز ينظرون إلى هذه الجمعية وأعضاءها ومنبعها ومخرجها دار العلوم ديوبند بنظرة الشك والأحقاد. وتغيرت الظروف والأحوال لأسباب مختلفة حتى خاف شيخ الهند وأصحابه على بقاء دار العلوم ديوبند من الحكومة الإنجليزية، لأن هذه الجامعة دار العلوم ديوبند كانت هي مركز واحد للمقاومة ومصدر واحد لهذه الحركات والجمعيات فأوقفوا هذه النشاطات كلها خوفا من إقفال الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند. وعندما زاد الخطر أرسل شيخ الهند تلميذه البار الشيخ عبيد الله السندي الذي كان رائدا فعالا لهذه الجمعية إلى دلهي. وفي فترة

قصيرة ظلت جمعية الأنصار تضمحل لأنه لم يقم أحد من يملأ مكان الشيخ عبيد الله السندي وفقدت الجمعية بتوالي الأيام عددا كبيرا من أعضاءها، منهم من توفي ومنهم من انفض عنها لأسباب خاصة، وفي وقت قليل غابت جمعية الأنصار من صفحة الأرض، ولكنها خلفت آثارا بعيدة المدى.

نظارة المعارف القرآنية: كان شيخ الهند من أوائل الداعين إلى تحقيق عدد عظيم من المشروعات الإصلاحية والثقافية والاجتماعية، وله دور مجيد في إصلاح المجتمع الهندي وتثقيف المسلمين وإيقاظهم، فقد كان شيخ الهند واسع الأفق في تعاليم الإسلام وعناياته السامية إنه كان من أتباع الشيخ محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي فرافقهما وصاحبهما وبايعهما فتأثر بجهودهما ودورهما في سبيل الحرية تأثرا عظيما وحمل دعوتهما وفكرتهما فتموجت نفسه بالعواطف الإسلامية،وهو أول متخرج من المدرسة التي قامت للمقاومة ضد الاستعمار البريطاني، فكيف يمكن له أن يكف عن دعوته ومسئوليته ورثهما من أسلافه بعد ما غابت "جمعية الأنصار" التي أسسها لتحقيق هذا الهدف المجيد. والجدير بالذكر أن شيخ الهند قد جعل جماعة من تلاميذه ومريديه من خلال دروسه في الجامعة الإسلامية بدار العلوم ديوبند ورباهم على الدين والأخلاق. ومنهم الشيخ عبيد الله السندي رائد "جمعية الأنصار"، فلما أوقفت "جمعية الأنصار" نشاطاتها لأسباب مختلفة وافترق أعضاءها وانتشروا في أماكن مختلفة، فأرسل شيخ الهند تلميذه البار الشيخ عبيد الله السندي إلى دلهي حيث قام بتأسيس مدرسة في مسجد فتحبوري تحت رئاسة شيخ الهند والنواب وقار الملك والحكيم أجمل خان.٩ وسماها بـ "نظارة المعارف القرآنية" التي تهدف إلى نشر تعاليم القرآن في ضوء العلوم الطبيعية ما تطابق أحكام العقل والفكر، وتقصد إلى إخراج الشبان المسلمين من براثن المسيحيين، علما بأن الشبان المسلمين الذين يتعلمون في الكليات الإنجليزية في دلهي فكان المسيحيون يغرسون في قلوبهم الشك

والارتياب بخصوص إيمانهم ودينهم ويبذرون ذور الإلحاد والكفر في نفوسهم، فكان الشيخ عبيد الله السندهي يحاول إزالة هذه الأفكار من الكفر والإلحاد من قلوبهم ويطهرهم ويزكيهم ويغرس في نفوسهم حب الإيمان وحقيقة الإسلام من خلال دروسه في القرآن. وكان يفسر القرآن في أسلوب جديد ولهذه الدروس أثر بعيد المدى في تحرير تفسير القرآن من الخرافات وفتح باب الاجتهاد، ورسم الشيخ السندي طريقا جديدا لطلاب الجامعات كي يتطلعوا إلى الآفاق وفيهم الحضارة الحديثة والاستفادة من تطورات الفكر الإنساني والسير مع الزمن. ومما يسترعى النظر هو أن دروسه في تفسير القرآن هي دروس تنبعث في كل كلمة روح العصرية ودعوته إلى التحرير والتجديد والبعد عن التقليد وخلق الامتزاج بين روح الإسلام ومطالب الحياة العصرية ولعل من أجل هذا قد مال الشبان إليه ميلا عظيما لأنهم وجدوا في الإسلام مايوافق روح العصر، كما استهدفت هذه المنظمة إلى إيجاد جيل يكون بلونه وعنصره هنديا وبقلبه وعقله إسلاميا. تموج نفسه بالعواطف الإسلامية تتغذى روحه بالثقافة الإسلامية والحضارة الشرقية. وكان الشيخ عبيد الله السندي يريد أن يعيد هذا الجيل الجديد من المسلمين إلى الإسلام من جديد. فيوقظ فيهم روح القومية والوحدة، فنحن نراه يركز جهوده لإنهاض الأمة الإسلامية الهندية من رقادها، فإنه يقوم بخطة شاملة لنهضة الأمة الإسلامية ونشأتها بعد دراسة انتقادية لتاريخ الأمم وثقافتها وعلومها تتمكن من قيامها بدور الخلافة والإمامة. وكذلك يوجه دعوته إلى كل من الحكام والأمراء وأصحاب رؤوس الأموال ورجال الأعمال والعلماء والأساتذة والصوفية ورجال القوة المسلحة والعمال وغيرهم من حكام الأمة المتنوعة وانتقد على أوضاعهم وأعمالهم خلال تلك الأيام وأرشدهم إلى رفع مستواهم الاجتماعي والخلقي.

ولم تمض على ذلك سنتان إلا بدأت تثمر مجهوداته وبدأت تظهر آثارها في المسلمين وكان الشيخ عبيد الله السندي يدرس القرآن الكريم والسنة والنبوية

كمصدرين أساسيين للشريعة الإسلامية، ويفسر العلوم النقلية في ضوء العلوم العصرية ويعد الدعاة الصالحين والمجاهدين في سبيل الله، وكان يرد على أعداء المسلمين والدفاع عن الإسلام، ويحارب البدع والخرافات والعادات الجاهلية التي انتشرت في المسلمين حتى قدم عليه شيخ الهند يوما، وقال له: "ما دام الإنجليز يحكمون البلاد سيكون من الصعب لك أن تهدي عشرة أو عشرين شخصا في حين يضل الإنجليز آلافا من الناس إلى الإلحاد والزنقدة."[١٠]

وكان شيخ الهند يريد أن يقول الآن قد حان الوقت أن نقوم بثورة عنفية ضد الاستعمار البريطاني، وأمره أن يذهب إلى كابل لخلق الجو للثورة ويثير المجاهدين للجهاد. فذهب الشيخ عبيد الله السندي إلى كابل حيث لعب دورا كبيرا في الجهود لاستقلال الهند، ويوما في نهاية المطاف توقفت نظارة المعارف أيضا، ولكنها خلفت آثارا بعيدة المدى.

فخلاصة القول إن شيخ الهند هو أكبر مصلح اجتماعي عرفته الأمة الإسلامية في الهند في عصرها الحديث الذي وقف حياته على إيقاظ المسلمين وتوحيدهم وملأت دروسه في الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند قلوب الطلاب بحب الوطن وحلاوة الإيمان أو أشعلت فيهم جمرة الجهاد.

وإنه لم يهدف إلا أن يجعل الأفراد للمكافحة ضد الاستعمار البريطاني واستخلاص الوطن من براثن الأجانب. فبذل كل ما في وسعه في توحيد المسلمين واحتفاظهم بدينهم وثقافتهم. وأدى الأمانة التي حملها من شيخه محمد قاسم النانوتوي، ومهد السبيل لتحقيق الوحدة الإسلامية في الهند وخارجها، فكان ظهور شخصية شيخ الهند خلال تلك الأحداث الحرجة من النعم النبوية الموهوبة للأمة الإسلامية في الهند.

الحواشي والهوامش

(١) أسيران مالتا — سيد محمد ميان — ص. ١٢

(٢) نقش حيات ج٢ — الشيخ حسين أحمد المدني — ص. ٢٢٣

(٣) يد بيضا — حامد عبيدي — ص. ١٣

(٤) ذاتي دائري — الشيخ عبيد الله السندهي — ص. ٢٠

(٥) ماهنامه القاسم — ص. ٤٨

(٦) نقش حيات، ج ٢ — مولانا حسين احمد مدني — ص. ١٣٧

(٧) علماء هند كا شاندار ماضي، ج٥ سيد محمد ميان — ص. ١١٩

(٨) حضرت شيخ الهند حيات اور كارنامے — مولانا أسير أدروي — ص. ٢٩

(٩) نقش حيات، ج٢ — مولانا حسين احمد مدني — ص. ١٤٢

(١٠) أسيران مالٹا — سيد محمد ميان — ص. ٤٦

الفصل الثاني

الإسلام وحب الوطن كما مارسه شيخ الهند

الهند هي بلادنا ووطنا، قد وهب الله لبلادنا العزيزة سمعة طيبة في الآفاق. فهي من أعرق بلدان العالم وأقدمها حضارة. وهب الله جل وعلا سماء صافية في ربوعها الواسعة الشاسعة المترامية الأطراف، نشأ فيها الأعلام والعباقرة ورجال الفكر والدعوة والإصلاح ونوابغ التربية والثقافة والعلوم والآداب، مثلما وهبها أراضي سهلة وخصبة ذات أنهار جاريات وحدائق جميلة خضراء وينابيع متفجرة وصحارى واسعة وجبالا شامخات وثروات بشرية وزراعية ومعدنية في المناطق الكثيرة غير المعدودة، وقد أنجبت بلادنا الهند أناسا في كل مكان يؤمنون بالله ويجعلون الديمقراطية شعارا لهم، ويحبون الخير ويدفعون الشر والأذى عن الوطن، فما أحلى بلادي وأعظم شعبي، فبلادنا الهند هي حبيبة إلى نفوسنا.

ومن فطرة الإنسان أن يحب وطنه وأرضه بل يوجد حب الوطن حتى في الحيوان فنرى أن العصفور يحب عشه الذي ينام فيه، والنملة تحب مسكنها الذي تأوي إليه. فلماذا لا يحب الإنسان وطنه؟ فهذا من الفطرة أن نحب وطننا الذي نعيش فيه، ويعيش فيه أهلنا وأقاربنا وأصدقاؤنا، وفي ثراه يواري رفاتنا ورفات أعقابنا إلى يوم البعث. فكل منا نحب مسقط رأسنا وتربة أرضنا الهندية العزيزة كلها، وندافع عنها بكل ما لدينا من مال وصلاح وعلم ودماء.

فمن الواجب علينا أن نحب وطننا لأن حب الوطن من علامة الإيمان ولاينافي الإسلام، ومن حقه أن نجتهد في أداء واجباتنا حتى ننفعه وننصره برأينا ونسعده بذكاءنا، ومن الواجب علينا أن نجعله محترما بين الأوطان، وذلك لأنه

لـولا الوطن لعشنا في الحياة طريدا ذليلا، ولانجد أرضا تؤينا ولارأية نعتز بها ولا دولة نـفتخر بها، ومن حقه علينا أن ندافع عنه إذا اعتدى عليه أحد ونحمل السلاح لحمايتها بكل ما نملك من القوة.

فـنحن نؤمن بأن هذه البلاد ـ الهند ـ هي بلادنا ووطننا. هي وكرنا الذي نأوي إليـه وحـقـنـا عـليه حق الطائر على عشه وعلى روضته التي ولد وعاش فيها، ويجلس على أي غصن شاء ويطير في الأجواء في حرية وانطلاقة ومن غير خوف وإشفاق.

فـوطنيتنا صادقة، وحقوقنا المدنية لاتتحدى وتناقش، يجب أن تكون هذه مـن عـقـيـدتـنـا، وأن نـكـون مـن ذلك عـلـى ثـقة ووضـوح، لايخالجنا في ذلك تردد واضـطـراب، ولايسـاورنـا فيـه خـوف ولا ارتيـاب، فنحن أبناء الهند. سنعيش فيها كـأبنـاءهـا الأوفيـاء وسـنسهـم بـكـل مـا نـمـلك من طاقات ولياقات في تقدمها ورقيها وتـحـقيـق مشاريعها العمرانية ورفع مكانتها السياسية بكل نشاط وحماس، وسنظل على كرامتها وشرفها وروح دستورها، فنحن حرسة دستورها ولانسمح بخيانة فيها أو مؤامرة ضدها لأننا أبناء بررة وقوم أشراف ومواطنون أوفياء.

والآن قبـل أن نتـحـدث عـن حـب الوطن والإسلام وممارسة شيخ الهند لأنه كـان مـمثـلا للإسلام كما كان مجاهدا كبيرا في سبيل تحرير البلاد في نفس الوقت. مـن الـواجـب عـلـيـنـا أن نـذكـر مـا هو موقف الإسلام الصحيح عن الوطنية، وماهو التـعريف الصحيح للوطنية، وكيف يمكن إطلاقها في عصرنا الحاضر. وماهو الفرق بين الوطنية والقومية؟

فـالـوطـنية مـن أهـم الـنـزعـات الاجتـماعية تربط الفرد البشري بالجماعات وتـجـعـلـه يـحبهـا ويـفتـخـربها، ولعل لأجلها يضحي في سبيلها، ومن المعلوم لدى الجميع أن الوطنية هي حب الوطن وشعور باطني نحوه.

وتطلق القومية في اللغة الإنجليزية على جماعة من الناس الذين يتبعون دينا واحدا أو يتكلمون لغة واحدة أو يسكنون في منطقة واحدة ولهم طقوس مماثلة.

وأما القومية بالمفهوم الأوربي هي ضد تشريعات الإسلام وقيمه ومفاهيمه وهي المفاهم والقيم والتشريعات التي تناقض العنصرية والعرقية والطائفية والتمييز: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"١.

والحديث الشريف: لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، فالمفاضلة في الإسلام قائمة على أساس التقوى لا على الحسب والنسب أو الجاه أوالطبقة أو العنصر والجنس. فهل نفهم من هذا أن القومية ضد الإسلام؟ فالجواب نعم ولا، نعم حين تكون بديلا لها، أو عدوا يقصيه ويستأصله ويحول المسلين إلى عبيد في أوطانهم أو غرباء بعيدا عنها، ولايشاركون في بناءها وتعميرها والتمتع بخيراتها، وقد عدها الشاعر الدكتور محمد إقبال كفرا حين ارتفعت بعض الصيحات في الهند تنادي بإحلال القومية محل الإسلام والأخوة الإسلامية، فقال "إن القومية كفر والقومية ضد الإسلام حين تبنى على العنصرية أو الطبقية أو رفض الأخوة الإسلامية.٢

أما الجواب الثاني فـ"لا" أعني أن القومية ليست ضد الإسلام، حين تكون عونا للمسلمين، وحامل عبء يفوق طاقة الآخرين في إعلاء شأن الإسلام وإعزازه ونشره، لقد أعز الله العرب بالإسلام، فجعل النبي عربيا، وأنزل القرآن بلسان عربي مبين، وجعل اللغة العربية لغة أهل الجنة. ولذا فإن المسلمين من شتى الأجناس والأعراق والعناصر والأقطار ينظرون إلى العرب نظرة إعزاز وتقدير. إن المسلمين في العالم كله يؤمنون بالأخوة الإسلامية بقوله سبحانه وتعالى "إنما المؤمنون إخوة" ويعتقدون بأن هذه العلاقة بالأخوة الإسلامية والوحدة الملية فوق كل شئ من أمثال مشاعر القومية والوطنية لأن القومية مبدأها على الأرض والتراب التي تفرق الناس على أساس اللغة والجنس والمنطقة والطقوس، وأما الأخوة الإسلامية فهي قائمة على أساس الدين، فالمسلمون يعتقدون بأنهم إخوة وقوم واحد، والمسلم لا يكون هنديا أو إيرانيا أو فحسب بل إنه يعتبر نفسه مواطنا عالميا والعالم كله وطن له.

قد بدأت قضية القومية بالمفهوم الأوربي حينما نادى المغرب والمتغربون بإحلال القومية محل الإسلام والأخوة الإسلامية ومشاعرها، وحاولوا القضاء على الأخوة الإسلامية وبدأوا يشيعون الدعاية أن الإسلام ضد للقومية، لأن الدين لا يشكل عنصرا، وأن الدين وسيلة للاستغلال تتولى فيه طائفة على طائفة أخرى، وإن الوحدة لا تقوم إلا على أساس وحدة اللغة والثقافة والوطن، فخالف المسلمون هذه القومية بالمفهوم الأوربي ومنهم الشاعر الدكتور السير محمد إقبال ومحمد على جناح والسيد أبي العلاء المودودي وغيرهم كثيرون وقالوا إن القومية على أساس التراب هي فكرة استعمارية استخدمت لتحطيم الرباط الديني الذي يؤلف الأمم والأقوام، وأما الأخوة الإسلامية فمبدأها الديني هي خير وسيلة لربط الأمم والأقوام بالإسلام وعلى هذا الأساس انقسم الهندوس والمسلم فى أمتين مختلفتين في الهند باختلاف ديانتهم وعقائدهم وطقوسهم وطرق حياتهم ولوكانوا يعيشون في وطن واحد، وهذه الأفكار هي التي سببت تقسيم الهند إلى دولتين على أساس الدين، لأن في اعتقادهم القومية تقوم على أساس الدين، فخالفهم الزعماء المسلمون الوطنيون على رأسهم الشيخ حسين أحمد المدني، وأبو الكلام آزاد ومحمد علي جوهر وغيرهم، وقالوا إن القومية تقوم على أساس الوطن لا على أساس الدين، وهذه القومية ليست ضد للإسلام بل يوجد سنده في التاريخ الإسلامي وفي حياة الرسول ﷺ وخير شاهد على ذلك ميثاق المدينة وعلما أن ميثاق المدينة تشتمل على كل من اليهود والنصارى والمشركين الذين يعيشون في وطن واحد، فاقترح رسول الله ﷺ على اليهود والنصارى والمشركين في المدينة، تعالوا أن نتعهد بأن ندافع عن وطننا إذا اعتدى عليه قوم آخر، فنحمل السلاح للكفاح عن الوطن بكل ما نملك من القوة، وهذه المعاهدة تدل على أن القومية تقوم على أساس الوطن لا على أساس الدين.

فالوطنية عند شيخ الهند لا تختلف بسبب الديانة أو اللغة أو الطقوس، فإنه

يعتقد أن الدين وسيلة في الوصول إلى الله فلا يصدر الحكم باختلاف القومية على اختلاف الديانة واللغة والمنطقة والطقوس فيدخل كل مسلم وهندوسي في القومية خاصة في الهند فلو كانت الهند أمة واحدة قبل دخول الإسلام، فينبغي أن تظل كذلك على الرغم من تغيير معتقد كبير من أبناءها بل كثير من المسلمين في الهند كان أجدادهم من الهندوس، فتحولوا إلى الإسلام قبلوه واندمجوا مع المسلمين، وصاروا من عداد الأمة الإسلامية قلبا وقالبا وتركوا عادات وتقاليد وعبادات ، فجلمة القول إنه لا يؤمن بالقومية السياسية كما نرى الإنسان يكتب دينا بذاته، على سبيل المثال يكتب كل مسلم وهندوسي في جواز سفره أنه مسلم أو هندوسي، ولكنه يكتب في مكان الوطنية أنه هندي فلا يضر القومية عمل المرء بكونه مسلما أو هندوسيا، فلا بد أن تقوم القومية على أساس الوطن كما قال تلميذه النجيب والزعيم المسلم الكبير في الهند الشيخ حسين أحمد المدني في هذا الصدد، "وفي العصر الحاضر تقوم القومية على أساس الأوطان لا على أساس الأديان"٣

وقد عرف الشعب الهندي في تاريخه الطويل بقوة عواطفه الدينية وحبه الوطني، وأبدى اهتمامه الشديد بقضايا الإسلام والمسلمين وقضايا الوطن والدفاع عنه، فكان المسلمون أوفياء لوطنهم لا يتشاغلون عن خدمته ولا تمنع مشارعهم الدينية في سبيله، وخير مثال على ذلك محمد على جوهر الزعيم المسلم الوطني الذي كان وفيا لوطنه وصادقا في حبه، أدرك ببعد نظره وفراسته النادرة خطر العبودية الغربية في ظل الاستعمار البريطاني فرفع صوته ضد الحكومة الإنجليزية بذل كل ما في وسعه من الجهود في إخراج الإنجليز من الهند. لأنه رأى بفراسته وفطنته مراميهم وأهدافهم، وهي في جملة أن الإنجليز خطر مهدد للهند وللإسلام كليهما، كما صدقه الدهر فيما بعد، فاستهلك حياته للذود عن الوطن والدفاع عنه، مع أنه كان داعيا كبيرا إلى الأخوة الإسلامية العالمية ولأجل هذا أسس حركة الخلافة مع الزعماء الآخرين، ولكن حبه للوطن لاينافي إيمانه بالإسلام والمسلمين، بل أنه

قد آمن بقول الرسول ﷺ "لا يحب الوطن إلا مؤمن"، "وحب الوطن من علامة الإيمان"، ومن المناسب هنا أن نذكر خطبته التي ألقاها في لندن وهذه الخطبة تدل على حبه للوطن فإنه قال:

"...Religion, to my mind, means interpretation of life. I have a culture, a polity, an outlook on life- a complete synthesis which is Islam. Where God commands I am a Muslim first, a Muslim second and a Muslim last, and nothing but a Muslim. but where India is concerned and India's freedom is concerned, I am an Indian first, an Indian second and an Indian last, and nothing but an Indian"٤

قد طال الكلام حول هذه القضية الوطنية وموقف الإسلام منها، ولم نذكر حتى الآن كيف مارس شيخ الهند حبه للوطن في ضوء أعماله وجهوده في سبيل تحرير البلاد مع أن هذا هو موضوع بحثنا، أما أنا فوصلت إلى النتيجة بأن هذا الموضوع "الإسلام والوطنية أصبح موضوع تختلف الآراء بخصوصه، فالقومية بالمفهوم الأوربي تقوم على أساس التراب والجنس والطقوس والديانة، وحاول المتغربون إحلالها محل الإسلام وإزالة الأخوة الإسلامية العالمية، أما المسلمون المتشددون جعلوا هذه القضية مسألة من إيمانهم وعقائدهم بلا جدوى، وأما موقف الإسلام الصحيح عن الوطنية ما قاله الشيخ حسين أحمد المدني "وفي العصر الحاضر تقوم القومية على أساس الأوطان لا على أساس الأديان" وقال الشيخ وحيد الدين خان في هذا الصدد، ومن الواجب على المسلمين أن يسيروا مع الركب العالمي في مثل هذه القضية ولا يجعلونها مسألة من إيمانهم وعقائدهم.٥

فلا بد لنا أن نختار الطريق الاعتدال في مثل هذه الأمور بقول رسول ﷺ خير الأمور أوسطها.

إن الإسلام يعلم حب الوطن، كما قال الرسول الأعظم ﷺ حب الوطن علامة الإيمان ويجب على المسلمين أن يكونوا أوفياء لأوطانهم ومستعدين للدفاع عنه كما يرى مولانا أبو الكلام آزاد أن الوطنية هي علمانية ولا غير، "فهي لاتكون هندوسية ولا إسلامية بل هي شعور باطني نحو الوطن، وفي الواقع أن الإسلام والوطنية شئ واحد ولايمنع الإسلام عن التضحية في سبيل تحرير البلاد"٦

فكان شيخ الهند يحب وطنه حبا جما، ويؤمن بالوحدة بين المسلمين والهندوس بل كان يعتبره جزء من إيمانه، كما يؤمن بوحدة الأمة الهندية منذ وقت مبكر في حياته، فزادته الأيام إيمانا بأن وحدة الأمة هي ملاذها الأمن وطريقها إلى التقدم والازدهار، ووسيلتها الناجحة للعودة إلى حفظ التاريخ، فالأمة الهندية بموقعها الفريد، وطاقتها البشرية الهائلة وثرواتها الغنية ورسالتها الإنسانية مؤهلة لتحتل مكانة سامية في الركب العالمي وتكون عنصرا مؤثرا في وضع حضارة المستقبل، حضارة تقوم على الإخاء والتعاون بين الأمم والسعي لينعم البشر بالرخاء والخير، ترفرف عليهم رايات المحبة والسلام.

فلما رأى شيخ الهند أن بريطانيا مسيطرة على الهند كلها فلم يطق صبرا على أن يبقى وطنه وأبناءه تحت الحكومة الإنجليزية الغاشمة، فقام برفع صوته ضد الاستعمار البريطاني وتحريض المواطنين للحرية والجهاد لاستقلال الوطن لأنه كان يعلم جيدا أن استخلاص الوطن لا يمكن الحصول عليه بدون الاتحاد بين الشعوبية كما قال في خطبته التي ألقاها في حفلة لجمعية العلماء "...ومن الواجب على الهندوس والمسلمين أن يقيموا ضد الاستعمار البريطاني الذي هاجم دينهما ووطنهما وحريتهما"٧

رفع شيخ الهند رأية الوحدة الوطنية، وواجه في سبيل ذلك مصائب كثيرة ومشاكل عديدة لأن الحكومة الإنجليزية بدأت تتلاعب بشعور الناس على أساس ديانتهم، وتشعل بنيران الاشتباكات الطائفية، التي ألهبت نفط الحقود والبغض

والعداوة، وتتخذ سياستها الجنسية والدينية "فرق وتسد" وليس لها هدف إلا تمديد فترة الحكومة الإنجليزية في الهند، فقام شيخ الهند في القضاء على سياستها الفاسدة، وبدأ يوقظ في أهالي الهند الغيرة الدينية وحبهم للوطن، ويدعو إلى الجهاد والكفاح والجود بالنفوس والأموال ونبذ الراحة والدعة، وعيشة الذل والهوان في سبيل طرد الإنجليز من وطنهم وتطهيره من أقدامهم القذرة، فكل هذه المكافحة والمقاومة تدل على حبه للوطن وخير شاهد على ذلك تلك الفتاوى التي أصدرها على استفتاء الطلاب من جامعة عليكره الإسلامية بخصوص ترك الموالاة، فيقول "....إن أي تأخير في أداء الواجبات الدينية والشرعية والوطنية إثم عظيم"٨

وفي هذه الظروف الشديدة والأحوال الفاسدة برز شيخ الهند على الساحة الوطنية كمسلم فاض قلبه بحب الوطن وأهله، فنرى شيخ الهند وهو يدعو الهنود إلى التعاون فيما بينهم، ويؤكد حقيقة كبرى وهي أن الهند ليست وطنا لقوم دون قوم، أو لديانة دون ديانة أو نسل دون نسل وما إلى ذلك، بل كلهم مواطنو الهند ينتمون إليها وهي تنتمي لهم جميعا، لذلك يجب على جميع مواطني الهند أن يبذلوا كل ما في وسعهم من جهد لتلخيص الوطن من براثن الاستعمار البريطاني، فقام بأداء المهمات الكبيرة لتحقيق هذا الهدف النبيل، وبذل جميع جهوده في إيجاد الأخوة البشرية والوحدة القومية، وغرس في قلوب الناس حب الوطن، فهكذا نجد أن شيخ الهند وجه دعوته الوطنية في زي الدين إلى الشعب المسلم الهندي، ودعاهم إلى الوحدة القومية وأيقظ فيهم روح الدين وحب الوطن، وأشعرهم خطورة الاستعمار. ودعاهم إلى ترك الخلافات المذهبية التي تبدد قوتهم السياسية وتخمد حبهم الوطني. وقال في خطبته التي ألقاها في الجلسة لتأسيس الجامعة الملية الإسلامية، "إذا لم توجد في الطلبة مبادئ العلوم عن دينهم ونسوا فكرة القومية وتخمد فيهم حمية الوطنية فمن الواضح أن هذه المراكز العلمية تصبح وسيلة لإضعاف قوتهم الدينية والقومية، فنظرا لهذه الحقيقة أسست الجامعة الملية الإسلامية التي تكون بعيدة عن نفوذ الحكومة ويتم إدارتها على فكرة القومية والخصائص الملية"٩

إن شيخ الهند جعل همه الوحيد طول حياته الاحتفاظ بالثقافة الإسلامية والجهاد ضد الاستعمار البريطاني والمكافحة لإخراج الإنجليز من الهند والدعوة إلى الوحدة الوطنية، لأن في رأيه ليست الهند للهندوس وحدهم أو المسلمين بل هي لجميع الأقوام والشعوب الهندية التي أصبحت قوما واحدا وأمة واحدة وكانت الوحدة ضرورة قاسية لاستقلال الوطن فلأجل ذلك ربى تلاميذه البارين المتخرجين من الجامعة الإسلامية بدار العلوم تربية خاصة، ونفخ فيهم روح الجهاد ضد الإنجليز لإخراجهم من وطنهم الحبيب. إن جهود الهندوس في سبيل تحرير الوطن تعد من الحب الوطني ولكن بالنسبة إليكم هذا واجب ديني أيضا وداخل في حكم الجهاد، فجعلكم الله مجاهدين في سبيله ويدخل في معنى الجهاد وكل عمل أو سعي في سبيل الحق لإزالة الظلم والاستبداد ولقمع عبودية الناس، والمعروف أن العبودية سواء كانت للأجانب أو المستبدين من الأمة نفسها لا تجتمع مع الإسلام، وإن السعي للحرية والاستقلال وحمل الشدائد والمصائب والاغتباط بالموت في سبيله كل ذلك واجب على المسلمين، وهي تراثهم الديني ورثوها من أجدادهم وأسلافهم، فإما أن يعيشوا أحرارا أو يموتوا كراما.

فجملة القول، على المسلم الهندي واجبان، واجب إسلامي وواجب وطني، فالواجب الإسلامي يطالبهم أن لا يحصروا نظرهم على حدود أرضهم ووطنهم، بل يقوموا بكل مساعدة ممكنة لإخوانهم المسلمين في العالم كله (ضد الحكومة الاستعمارية التي سيطرت على معظم البلدان الإسلامية.)

وأما الواجب الوطني فيطالبهم بالاتحاد مع أبناء وطنهم وبذل نفوسهم وأموالهم في سبيل استقلال الوطن، فمن تلك الناحية لايناقض الإسلام حب الوطن بل أصبحت الوطنية جزءً من الإسلام ولايمنع الإسلام عن التضحية في سبيل تحرير الوطن. وهكذا لاينافي حب الوطن الإسلام بل هو من علامة الإيمان كما مارسه شيخ الهند، والواقع أن حياة شيخ الهند حافلة بالمواقف الفذة، لأنه كان

رجـلا مـوهوبا في فكرته ونظرته للدين والسياسة ومتبحرا في العلوم الإسلامية مع إلمام كامل بالتراث الهندي بجانب فكرته القومية وحبه الوطني.

الحواشي والهوامش

(١) الحجرات، القرآن الآية، ١٣

(٢) المجتمع، العدد، ١٦٤٣ مارس ٢٠٠٥ ص. ٤

(٣) فكر إسلامي وحيد الدين خان ص. ١٨

(4) Composite Nationalism And Islam Madani Maulana Hussain Ahmad P.12

(٥) فكر إسلامي وحيد الدين خان ص. ١٠٤

(٦) مولانا آزاد شخصيت، سياست، اور پيغام رشيد الدين خان ص. ٢٥٣

(٧) حضرت شيخ الهند حيات اور كارنامے مولانا اسيرادروي ص. ٣٠٦

(٨) نقش حيات مولانا حسين أحمد مدني ص. ٣١٥

(٩) نقش حيات مولانا حسين أحمد مدني ص. ٢٥٧

الفصل الثالث

نظرية شيخ الهند بخصوص العلمانية والتعايش السلمي

إن تربة الهند ثبتت خصبتها، أكثر من غيرها، لنمو كثير من الديانات. فتوجد في كل ناحية من نواحيها ديانات متعددة، فإنها ولدت كما آوت وربت أيضا العدد الكبير منها. أصدرت واستوردت حتى أصبحت مهدا للديانات. فهي ميزة ومفخرة للهند حيث يوجد فيها أتباع الإسلام والمسيحية والهندوسية وديانة بدها وديانة جنيا وديانة سيخ وغيرها من الديانات الأخرى. فالهند صالحة لجميع هذه الديانات ولأصحابها. ولكن مع هذا يتحتم على أهاليها أن يعيشوا سالمين متسالمين. هانئين قانعين، بتسامح وحب للجميع.

نظرا لهذه الكثرة الدينية، ووقوع الحوادث والاشتباكات الطائفية والدينية، قام عدد كبير من مفكري ومصلحي الهند لإيجاد التوافق والتطابق والاتحاد بين أهالي الهند. أمثال كرم تشاند غاندي، جواهرلال نهرو. ومولانا أبو الكلام آزاد وشيخ الهند محمود الحسن الديوبندي وغيرهم كثيرون، وبذل هؤلاء كلهم مجهوداتهم في سبيل تحرير الهند والتضامن بين مواطنيها وكان منهم شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي الذي لعب دورا فعالا في إيجاد الوحدة القومية والقوة البشرية.

فكان شيخ الهند عالما ومثقفا كبيرا من أتباع الشيخ محمد قاسم النانوتوي الذي شارك في ثورة عام ١٨٥٧م وحارب لإخراج الحكومة الاستعمارية من الهند. وقد طابعت فكرته على شخصية شيخ الهند هو أن الهند ليست للهندوس وحدهم أو للمسلمين وحدهم بل هي لجميع الأقوام والشعوب الهندية التي أصبحت قوما واحدا وأمة واحدة. وقد آمن شيخ الهند بوحدة الأمة الهندية منذ وقت مبكر في حياته

ودخل في السياسة بهذه الفكرة. فزادته الأيام إيمانا بأن وحدة الأمة هي ملاذها الأمن والسلام. وطريقها إلى التقدم والازدهار. وتحقيقا لهذه القومية المتحدة والتضامن بين الشعوب الهندية المختلفة أنفق شيخ الهند حياته كلها لكي تبقى الهند متحدة متماسكة ومتضمنة بأقوام مختلفة وديانات مختلفة وحضارات مختلفة في وحدة كاملة. ما كانت خصائص الهند منذ زمن قديم ولاتزال حتى يومنا هذا هي الوحدة في التنوع والتنوع في الوحدة.

فاتخذ شيخ الهند سبيلا بل سبلا أخرى لتحقيق نفس الغرض، ونجح، وأحرز قصب السبق فيها. فدعا إلى الاتحاد بين الهندوس والمسلمين لأن الاتحاد في رأيه هو الحجر الأساسي لبناء الوطن. فهو لم يدع إلى اتحادهما فحسب، بل دعا بذلك إلى إيجاد الاتحاد بين الطوائف والشعوب الهندية المختلفة. إنه كان يعلم بأن الهند مهد للديانات المختلفة، ولايمكن لها أن تحقق التقدم والرخاء كأمة هندية بدون التعايش السلمي الذي أصبح ضرورة قيمة للمجتمع الهندي. والهند هي صالحة لجميع هذه الديانات ولأصحابها حيث يمكن لهم أن يعيشوا فيها بكل أمن وسلام. وستكون في المستقبل أيضا صالحة لهذه الديانات كلها. إذ رجع أصحابها إلى تعاليمها الأساسية، فالدين عنده ليس بمقيد في ديانة واحدة أو قوم واحد أو حزب واحد بل هو عام لجميع الناس، فكان يؤمن أن جميع الديانات تحاول إزالة الخلافات والنزعات بين النوع البشري وجميع هذه الديانات تعلم الناس أن يعيشوا بالود والمحبة مع آخر من الناس. فالدين نفسه يدرس درس الحب والأخوة الإنسانية، فلذا الدين عنده هو الأخوة الإنسانية والوحدة البشرية. ومن المعلوم أن تعاليم لكل هذه الديانات هي الإيمان بالله والعمل الصالح والدعوة إلى الخير. فإذا فهم أصحاب الديانات هذه الحقيقة الكبرى، لما بقي لهم خلاف ولاجدال ولاقتال فيما بينهم، ويمكن لهم أن يعيشوا في الهند في ظل الدولة العلمانية بأمن وسلام وسعادة.

قد وقف شيخ الهند طول حياته لتحرير البلاد، وبذل كل ما في وسعه

للوحدة الوطنية. وقام بأداء المهمات الكبيرة لتحقيق هذا الهدف النبيل. فبذل جميع جهوده في سبيل ذلك وعانى مصائب كثيرة ومشاكل عديدة في إيجاد القوة البشرية والوحدة القومية، وحث الناس على دعم الحركات الوطنية التي تطالب الحرية والاستقلال دعما ماديا ومعنويا ومن الجدير بالذكر أن دعوته إلى إيجاد الوحدة بين الهندوس والمسلمين والشعوب المختلفة الهندية لاتعني أبدا انسلاخ المسلمين من معتقداتهم الدينية وترك الهندوس طقوسهم وشعائرهم الدينية، بل كان هو غيور على دينه وثقافته، ولا يقبل من أحد أن يتدخل في أمر دينه. مع احترام للديانات الأخرى، كما قال في خطبته التي ألقاها عام ١٩٢٠م، في الحفلة الثانية لجمعية العلماء، وهذه الخطبة تدل على فكرته للوحدة القومية ونظريته على التعايش السلمي فيما بينهم، فيقول "إذا يعيش الطوائف الثلاث الكبيرة الهندية بأمن وسلام فلا يمكن لأي طائفة أخرى أن يسيطر عليهم، ولقد صرحت في السابق وأقول مرة أخرى إنكم إذا تريدون أن تعيشوا حياة سلمية فعليكم أن لا تتدخلوا في الشئون الدينية لأي طائفة من الطوائف"١

فنرى أن شيخ الهند أيد فكرة التسامح الديني برحابة صدره لأنه كان يؤمن أن سكان الهند كلهم من أسرة واحدة وخلق إله واحد. فلو كانت الهند أمة واحدة قبل دخول الإسلام والمسيحية والديانات الأخرى، فينبغي أن تظل كذلك بالرغم من تغيير معتقدات كثير من أبنا ءها، وقد سمحت الهند لجميع المعتقدات والثقافات بأن تزدهر وتنمو بدون أي ضرر، فتفجر من ناحية من نواحي حياته حب الوحدة والقومية والأخوة الإنسانية. فما ألقى خطبة إلا حث فيها أبناء الوطن على التضامن بين المسلمين والهندوس. ودعا الشعب المسلم خاصة إلى التسامح الديني والاتحاد القومي وأثبت لهم بآيات القرآن بأن يجب على كل مسلم هندي أن يؤمن بالوحدة الإنسانية بقوله تعالى: "لكم دينكم ولي دين" كما يقول في خطبته التي ألقاها على المسلمين تحت لواء حركة الخلافة "ولاشك في أن الله سبحانه وتعالى قد جعل

المواطنين الهنود مؤيدين لكم: وأن هذا الاتحاد القومي له أهمية قصوى في سبيل تحرير البلاد. وأما الذين يبذلون جهودهم في تحقيق الوحدة بين الشعوب الهندية المختلفة فلهم شأن عظيم في الكفاح لتحرير الوطن. فمن الواجب عليكم أن لا تدخلوا في أمور دينية لأي جماعة تؤذون أصحابها"٢

تقدم شيخ الهند بلواء الاتحاد القومي والتسامح الديني والانسجام الطائفي لقمع الاضطرابات الطائفية وإقلاع العداوة السائدة بينهم على أساس أديانهم، وبذل قصارى جهوده في إيقاظ الضمير لأبناء الوطن وأحرز قصب السبق في توحيد أبناء الهند، ودعاهم وحرضهم على إقلاص الخليج والبعد بين المسلمين والهندوس وجمعهم على منصة واحدة. وكان يرى أن فقدان القوة السياسية أسفر عن غياب التناصح والمودة والثقة بالنفس عن المسلمين والهندوس والذي يشكل معوقا كبيرا في سبيل الوحدة القومية، ولكنه لم يقنط وظل يسعى للوحدة الوطنية. وكان دائما على استعداد لتضحية جميع مصالح في سبيل تحرير الوطن.

وفي هذه الفترة كانت الحكومة الإنجليزية تعمل على سياستها الفاسدة، "فرق تسد" وكانت تعلم جيدا أنه إذا توحد أهل الهند، وتخلصوا من داء العنصرية فلا يمكن لها أن تحكم طويلا هذه البلاد، ففي هذه الظروف المملوءة بالخطط الاستعمارية المدمرة قام شيخ الهند بمهمة كبيرة. فإنه أوجد الاتحاد بين أهالي الهند وأعلن الحرب ضد عناصر التفريق والتشتيت، وعلم الناس كيف يعيش الأقوام المتفرقة في انسجام وائتلام. فقال "إن نجاة الهند تكمن في إيجاد الوحدة بين الهندوس والمسلمين فلا بد للمسلمين والهندوس أن يؤدوا واجبهم الوطني لإيجاد الوحدة ويساهموا في محاولة مشتركة لتحرير الوطن بكل ما لديهم من طاقات مادية ومعنوية"٣

ومن خلال هذه الفكرة حاول شيخ الهند أن يوجد الاتفاق بين المسلمين والهندوس، ويرشدهم إلى واجباتهم تجاه وطنهم، وينفخ روح الحرية والاستقلال

والتسامح الديني كي يكافحوا متكاتفين ومتلاحمين فيما بينهم لاستعادة سيادة وطنهم الغالي وإنقاذ الأمة الهندية من قعر المذلة والهوان، وكي يفهموا أن مصيرهم مشترك ترتبطهم الصلات القومية والوطنية، فإذا ثبت بأننا جميعا نسعى إلى هدف واحد فلماذا نتفرق ونتشتت، ولماذا نتباغض ونتحاسد؟ إن هذه الوحدة الوطنية والأخوة البشرية تقتضي منا أن نعيش كالإخوة متجاورين متراحمين بأمن وسلام.

فكر شيخ الهند وتدبر واستلهم من التعاليم الإسلامية، فوصل إلى النتيجة أن القرآن يقسم المشركين إلى قسمين، الأول، من لا يحارب المسلمين ولاينتهز الفرص للنيل منهم، فينبغي للمسلمين أن يعيشوا معهم في أمن وتسامح، ويقيموا معهم علاقات جيدة، والثاني، من يحارب المسلمين ويؤامر ضدهم، فلا حاجة للمسلمين إلى إقامة العلاقات معهم.

"وإن نظرية شيخ الهند بخصوص العلمانية هي فكرة وحدة الدين تدعم بشكل كبير، "وحدة المجتمع متعدد الأديان"في بلاد كالهند حيث يستطيع أتباع ديانات مختلفة أن يعيشوا في دولة واحدة أو بلد واحد ولهم الحرية الكاملة لممارسة دينهم بدون خلاف أو صراع بشرط أن تكون الدولة دولة ديمقراطية وعلمانية تحتفظ بحقوق جميع الديانات وأتباعها. وعملا بهذه الفكرة الصالحة قضى حياته كلها في توحيد صفوف الأمة."٤

وعندما رجع شيخ الهند من مالطة حيث كان سجينا لحوالي ثلاث سنوات دخل سياسة الهند بكل حماسة وطنية وحمية دينية، وقد تغير فكره من العنف والثورة إلى الأساليب السلمية لتحرير البلاد وقد ظهر في تلك الأيام المهاتما غاندي على مسرح السياسة في الهند، فتأثر شيخ الهند بغاندي وبفكره تأثرا عظيما وبدأ ينظر إلى الوحدة بين المسلمين والهندوس بنظرة المهاتما غاندي، ويعتبرها هدفا وعقيدة سياسية ولإثبات صحة ذلك استدل بالآيات القرآنية "لكم دينكم ولي دين" "وإن جنحوا فاجنح لهم، وتوكل على الله إنه هو السميع البصير" وأثبت آرائه بميثاق المدينة.

وألح شيخ الهند على الهندوس والمسلمين أن يتعايشوا كأفراد أسرة وكأمة واحدة، فقال في خطبته التي ألقاها سنة ١٩٢٠م في الحفلة الثانية لجمعية العلماء.

"...أريد أن أوضح لكم الفرق بين دار الإسلام ودار الحرب كي تعلموا كيف يمكن لكم أن تعايشوا بالتسامح الديني مع إخوانكم المواطنين.."٥

وقد رأى شيخ الهند أن هذه العلمانية التي تسمح لكل طائفة أن تعيش في ظلها في أمن وسلام وتمارس دياناتها بالحرية الكاملة فهي لاتكون هندوسية ولاإسلامية، وإن علمانية الهند معناها أنها لاتميز بين دين ودين ولاترجح دينا على دين آخر، وفي الوقت نفسه تحترم كل الديانات وتوفر لها فرصة لإبلاغها ونشرها، فلابد أن تكون هذه العلمانية نظام الحكم للهند المستقلة، كما قال الشيخ وحيد الدين خان وهو يعرف هذه العلمانية، "وهذا عدم التدخل الحكومي هو روح أصيلة للعلمانية، والعلمانية ليست إلا أن الحكومة تتعلق بأمور مادية مشتركة وتلتزم بسياسة عدم التدخل في الأمور الدينية وهذا هو طريق قابل للتطبيق في مجتمع مشترك كالهند وهذا هو الذي يقتضيه الإسلام في أمور تخص الهند"٦

ومن المناسب أن نذكر هنا فكرة شيخ الإسلام حسين أحمد المدني تلميذه النجيب وخليفته السياسي، وهوالذي لعب دورا بارزا بعده في سياسة الهند، وأدى الأمانة التي حملها من شيخه محمود الحسن، وفكرة شيخ الإسلام تدل على فكرة شيخ الهند بكلمة المعنى لأن الأستاذ يعرف عن طريق تلاميذه كما تعرف الأشجار عن طريق ثمارها. فقال شيخ الإسلام حسين أحمد المدني.

"ومرادنا هنا من القومية المتحدة هو ميثاق المدينة الذي وضعه رسول الله ﷺ وتجب الإشارة إلى أن الرسول الأعظم قام بمعاهدة مع اليهود والنصارى والمشركين بأننا قوم واحد وأمة واحدة، فإذا اعتدى علينا قريش فعلينا أن نحمل السلاح للدفاع عن الوطن بكل ما نملك من قوة مادية ومعنوية، ففي ضوء هذا الميثاق أصبح المواطنون الهنود قوما واحدا وأمة واحدة ولوكان ينتمون إلى أي دين

وجماعة- فيجب على كلهم أن يكونوا كقوم واحد وأمة هندية متحدةم وأن يصمدوا على للأجانب الذين حرموهم المصالح المشتركة، فيجب عليهم أن يحاربوا للحصول على حقوقهم الوطنية ويحاولوا في إخراج الأجانب من وطنهم. وعليكم أن لا تتدخلوا في أمور دينية لأي جماعة كما يجب عليكم أن توفروا لهم الحرية الكاملة لممارسة أديانهم وطقوسهم وشعائرهم، وتعيشوا كالإخوان في أمن وسلام. وتكون لكم الحرية في نشر أديانكم وإبلاغها، وفي الاحتفاظ بثقافتكم وحضارتكم، كما يجب عليكم أن تجتنبوا من نزعات الأكثرية والأقلية ولاتسمحوا للأكثرية أن تضم الأقلية وتغلبها "٧

فخلاصة القول إن أهمية مشاعر شيخ الهند، وأفكاره ونظرياته بخصوص العلمانية والتعايش السلمي مازالت باقية حتى الآن، بل زادت أهميتها في هذا العصر، لأن المجتمع الهندي يعاني من التفكك والانحلال من داخله، فلا بد أن نحضر طريقة جديدة لتعمير البلاد وتطويرها، فيجب على الهندوس أن يثقوا بإخوانهم المسلمين والمسلمون بإخوانهم الهندوس لسلامة الحرية والاستقلال، كما يجب على العصابات الفاشية للهندوس أن تغير سلوكها تجاه المسلمين، ويجب على المسلمين أن يتركوا النزعات الانفصالية ويقفوا ويسيروا مع أولئك الناس الذين يحملون رسالة الوحدة والأخوة يحافظون على القيم الديمقراطية الحقة والعلمانية السمحة، ومن الواجب على المواطنين الهنود كلهم أن يرفعوا راية المحبة والسلامة، ويعتزموا أنهم يتحملون كل الصعاب والمشاكل من أجل إعلاء كلمة وطنهم الغالي، ويبذلوا كل ما في وسعهم في تطويره وتعميره كي تكون الهند بلادا متطورة ومحترمة بين البلدان الأخرى. وتكون الهند رائدة في الركب العالمي برسالتها الإنسانية.

الحواشي والهوامش

(١) علمائے حق اور انکے مجاهدانه مولانا سيد محمد ميان ص. ١٤٦
كارنامے

(٢) نفس المصدر ص. ٣١٤

(٣) مقام محمود (مجموعة مقالات) حبيب الرحمن القاسمي ص. ٣٢٩

(٤) الكفاح العدد، ٨٠٧، أبريل، ١٩٨٤م ص. ٣٤

(٥) خطبهٔ صدارت ص. ٢٧

(٦) فكر اسلامي وحيد الدين خان ص. ١٠٦

(٧) قوميت متحدة اور اسلام حسين احمد المدني ص. ٩١

الباب الثالث

مساهمة شيخ الهند في استقلال الهند

الفصل الأول:

دور العلماء في مقاومة الاستعمار البريطاني

الفصل الثاني:

مجهودات شيخ الهند في الحرية والاستقلال

الفصل الثالث:

حركة "ريشمي رومال" (خطة الرسائل الحريرية)

ودورها في تحرير الهند

الفصل الأول

دور العلماء في مقاومة الاستعمار البريطاني

إن شهادة السلطان تيبو في عام ١٧٩٩م غيرت مجرى التاريخ وقطعت كل رجاء في استقلال البلاد في مدة قريبة. ودخلت الهند في أيدي الإنجليز الغاشم بدون تنافس. ولم تعرف الهند في تاريخها الطويل قائدا عالي الهمة وثاقب النظر وأشد غيرة على الدين والوطن وأعظم عداء وبغضا للمستعمر الأجنبي من السلطان تيبو، فكان الإنجليز يهابونه جدا ويعدونه أكبر منافس واعدى عدو لهم ويعتبرونه عقبة في سبيل زحفهم وتحقيق نواياهم ويكفي لنا معرفة مدى خطره عندهم. أن الجنرال "هارس" البريطاني قال يوم شهادته وهو واقف على جثمانه. "من هذا اليوم، الهند لنا" أي ملكنا اليوم بلاد الهند فلا يمنعنا مانع. ولاينافسنا أحد بعده. كما صرح بذلك الجنرال "ويلزلي" الحاكم البريطاني العام في الهند وقتئذ. "لايجترئ أحد من حكام الهند وأمرائها علينا بعد موت تيبو"١

وقد أدرك العلماء المسلمون بأن سيطرة الإنجليز على الهند والقضاء على الحكم الإسلامي خطر على دينهم وثقافتهم، وهذه السيطرة تؤدى المسلمين إلى العبودية. وإن العبودية سواء كانت للأجانب أو المستبدين لا تجتمع مع الإسلام. وإن السعي للحرية والاستقلال وحمل الشدائد والمصائب والاغتباط بالموت في سبيله كل ذلك واجب على المسلمين. فلما رأى العلماء سيطرة كاملة لبريطانيا على الهند فلم يطق عليهم الصبر أن يبقى وطنهم وأبناؤهم تحت الحكومة الإنجليزية الغاشمة فقاموا برفع صوتهم ضد الاستعمار البريطاني. وهبوا لدفع هذا الخطر وإثارة الناس بمختلف الوسائل.

وحينما تجرأ مندوب الشركة الإنجليزية عام ١٨٠٣م على إجبار الملك المغولي "شاه عالم" على توقيع القرارات وأعلن "إن أرض الله والبلد للملك والحكم للشركة"٢ مشيرا إلى أن السلطة تكون في يد الإنجليز وأما الملك فيبقى رمزيا بلا نفوذ. فعارض العلماء هذه الفكرة وقاموا في القضاء على سياستها الفاسدة. وبدأوا يوقظون في أهالي الهند الغيرة الدينية والحماسة الوطنية ويدعونهم إلى الجهاد والكفاح ضد الاستعمار البريطاني.

فأول من قام لحماية الملك ضد الحكومة الإنجليزية هو الشاه عبد العزيز الدهلوي الذي كان خليفة للشاه ولي الله الدهلوي في الدين والسياسة. فأصدر الفتوى من المسجد الجامع أن الهند الآن أصبحت دار الحرب. وقد وجب علينا وعلى كل المسلمين أن يهبوا للجهاد ضد الإنجليز الغاصبين. لأن الحل والعقد صار بيد المسيحيين الإنجليز. فهم يديرون الأمور ويعينون الموظفين ويشرفون لعى القضاء والأمن ولا يحترمون الأمور السياسية للإسلام، ويهدمون المساجد بغير اكتراث. من أجل ذلك تحولت بلادنا الهند من دار الإسلام إلى دار الحرب. فانتشرت فتوى الإمام في البلاد وكان لهذا الفتوى صدى كبير وتأثير بالغ في المسلمين وأحدثت رجة في صرح الاستعمار البريطاني، فأخذ العلماء بالقرى والأرياف لتحريض الناس على الجهاد. وسار كل العلماء على نمطه في فتاواهم إلا هذا البعض القليل من العلماء الذين اصطبغهم الإنجليز واستجلبوا فتاواهم حتى من مكة المكرمة كي يقضوا على فكرة الجهاد التي يعتنقها بعض المسلمين في الهند. ويعمل بها المتحمسون الفدائيون منهم.

وفي عام ١٩٠٨م أرسل الشيخ الشاه عبد العزيز خليفته ومريده السيد أحمد الشهيد إلى النواب أمير علي خان ليلتحق في جيشه الذي كان يحارب ضد الإنجليز مع صديقه جسونت راؤ هلكر، وهذه بداية للمقاومة العسكرية للعلماء ضد الإنجليز الغاصبين، فمكث السيد أحمد الشهيد مع أمير علي خان وظل يحارب ضد الإنجليز

حوالي عشرة أعوام. ثم انفصل عنه حين رأى أنه أراد أن يصالح مع الإنجليز ورجع إلى دهلي. ولكن شيخه الشاه عبد العزيز لم يقنط من هذه الظروف القاسية ولم يكف بعمله. إنه كان رجل العزم والهمة، كرس حياته لخدمة الخلق وخصص جهوده لتحقيق مبدأ تتبناه مدرسة فكر الإمام الشاه ولي الله الدهلوي التي تولى رعايتها. فإنه كان ينبه في خطبته بخطر الاستعمار ويحث الناس على الجهاد ويهيأ الجو لتأسيس حزب تحت رئاسة السيد أحمد الشهيد فلا ندخل في عام ١٨١٨م حتى نرى أن كل الدويلات والطاقات التى كانت تقاوم الإنجليز خضعت لهم وسيطرت الحكومة الإنجليزية كل السيطرة على كل أرجاء البلاد. ولم يكن هناك أي حزب أو طاقة تصادم الإنجليز غير أنه كانت جماعة وقوة أبت أن تستسلم وتخضع للإنجليز. وهذه الجماعة كانت شعارها "فك كل نظام" يعني "الثورة الكاملة" ففي هذه الظروف العصيبة والأحوال السيئة أعد الشيخ عبد العزيز مع الرغم من كبر سنه وضعف بدنه وقلة بصره خطة للثورة المسلحة وشكل أول كتيبة في نظرية الإمام الشاه ولي الله الدهلوي.

فحص الشيخ عبد العزيز مواهب أتباعه ليكون توزيع المناصب على حسب الكفاءات والمؤهلات. فاختار السيد أحمد الشهيد أميرا لهذه الجماعة من المجاهدين. وجعل كلا من الشيخ إسماعيل والشيخ عبد الحي قائدا مساعدا مستشارا خاصا له. ثم أرسل هذا الجيش تحت قيادة البطل الجرئ السيد أحمد الشهيد في صورة قافلة صغيرة تتكون من ٥٠ نفرا، "فألبسه السيد أحمد الشهيد عمامته السوداء وقميصه الأبيض المستعمل رمزا أنه خليفة له وبطل للحرية وقائد للجهاد وأجازه للسفر"٣

وهذه القافلة تتسم بطابع إرسالية دينية تهدف إلى إصلاح الناس وتطهر المجتمع مما علق به من البدع والخرافات فحسب، بل استهدفت لتحرير الوطن وإعادة الحكم الإسلامي بإحداث الثورة المسلحة للقضاء على الحكم الإنجليزي.

غادرت هذه الجماعة من المجاهدين من دهلي سنة ١٨١٨م إلى البلدان الواقعة في جهة الشمال وقامت بجولة في مختلف الأنحاء. أدى فيها المجاهدون خدمات إصلاحية، كما نشروا الوعي السياسي ونفخوا روح الجهاد في نفوس المسلمين، ثم وصلت هذه القافلة في بلدة لكناؤ حيث أقامت مدة أربعة أشهر واشتغلت في إصلاح الناس وإزالة الخرافات والبدعات وتدريب المجاهدين.

وفي عام ١٨٢١م اجتمع المجاهدون تحت قيادة الشيخ السيد أحمد الشهيد وقاموا بجولة أطول وأشمل. وعددهم يومئذ٤٠٧ نسمة فخرجوا في سبيل الله وكانوا ينزلون في المدن والقرى لأداء واجباتهم للحج والزيارة لأن بعض العلماء أصدروا الفتوى أن فريضة الحج ساقطة عن المسلمين الهنود بسبب عدم الأمان في الطريق فأراد السيد أحمد الشهيد أن يسافر للحج لكي يحث الناس على هذه الفريضة المهملة.

ويقول الشيخ عبيد الله السندي عن الهدف الذي كان يرى إليه الشيخ عبد العزيز الدهلوي من بعث السيد أحمد الشهيد في جولتين. "لقد بعث الشيخ عبد العزيز لجنة السيد أحمد الشهيد لأول مرة في الرحلة سنة ١٤٣١هـ ليأخذ بيعة الطريقة (يريد ميثاق الأخلاق والإصلاح الروحاني) وأما تجهيزها للمرة الثانية سنة ١٤٣٦هـ فإنما كان ليأخذ بيعة الجهاد وأمره بالسفر للحج على رأس القافلة بأسرها يتدرب على طريقة الاحتفاظ بالنظام وتترقى موهبته القيادية وقدرته التنظيمية بالتجارب"٤

ولما رجع السيد أحمد الشهيد مع أصحابه من مكة المكرمة إلى وطنه "رائي بريلي" اشتغل في استعداد الجهاد. كما يكتب منشي جعفر التهانيسري وهو يصور نشاطات المجاهدين.

"عندما وصل السيد أحمد الشهيد إلى وطنه بدأ يصلح منزله الذي انهدم بعض أجزائه في غيابه. ثم اشتغل في أخذ الاستعداد للجهاد. وأرسل مولانا إسماعيل ومولانا عبد الحي إلى القرى والأرياف ليدعوا الناس إلى الإسلام

ويحثاهم على الهجرة والجهاد في سبيله وفي هذه الأيام ما ألقى خطبة إلا في فضيلة الهجرة والجهاد. وهكذا غيرت نشاطات المجاهدين من الذكر والمراقبة والمشاهدة إلى تنظيف البنادق وصيقلة السيوف وتدريب الحصان وما إلى ذلك. فهكذا تحول هؤلاء الصوفية جنودا واحتلت السيوف مكان التسبيح كما احتل لباس المجاهدين مكان لباس الصوفية"٥

سافر السيد أحمد الشهيد مع أصحابه ١٧ من يناير ١٨٢٦م من رائي بريلي للجهاد في سبيل الله إلى شمال الغرب بعد أن أمضى مدة سنتين في استعداد الجهاد حتى وصل إلى "جارسده" حيث أقام وجعلها مركزا للجهاد. وقد استغرق في هذا السفر عشرة أشهر تقريبا. ومن الجدير بالذكر أن عدد المجاهدين كان خمس مائة عند الخروج ولكن أصبح عددهم ألف وخمس مائة في "جارسده"، علاوة عن ذلك بدأت تصل جماعة المجاهدين إلى "جار سده" من كل ناحية البلاد.

وقعت المعركة الدامية بين هؤلاء المجاهدين والسيخ الذين فرضوا الحكم على الأذان وذبح البقرة وضيقوا الأرض على المسلمين في هذه المناطق. فدارت الحرب بين هؤلاء المجاهدين والسيخ ٢١ من دسمبر عام ١٨٢٦م فانتصر هؤلاء المجاهدون على عدوهم السيخ. ثم أسسوا حكومة إسلامية على منهاج الكتاب والسنة وجعلوا بشاور عاصمة لها. واختاروا السيد أحمد الشهيد أمير المؤمنين" وعينوا قضاة وأقاموا حدودا. قال مولانا سيد محمد ميان عن ذلك "إن هذه الجماعة من المجاهدين لم يوجد لها نظير في التاريخ بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. فتجددت ذكرى الصحابة وأضافت صفحة جديدة في تاريخ الدعوة الإسلامية والتجديد الإسلامي"٦

وفي عام ١٨٣١م اصطدم المجاهدون مرة أخرى بجيش السيخ الذين كانوا يذيقون المسلمين أسوأ العذاب. فبعد معركة عنيفة ودامية استشهد الإمام السيد أحمد الشهيد وصاحبه إسماعيل الشهيد ٧ من مايو عام ١٨٣١م في وادي بالاكوت.

فخلاصة القول إن الحركة الإسلامية التي قادها السيد أحمد الشهيد وأصحابه في الهند تستحق أن تعتبر أعظم حركة إسلامية لكونها حركة دينية ودعوية وسياسية شاملة. ولم يكن تأثير هذه الحركة مقتصرا على العهد الذي نشأت فيه أو الزمن الذي عاصرته بل إن آثارها الطيبة باقية في حياة المسلمين الدينية والثقافية إلى هذا اليوم.

ثورة عام ١٨٥٧م:

لم يكف العلماء عن مسئوليتهم نحو دينهم ووطنهم، فهبوا يعملون لإعادة ما فقد المسلمون من مجد وعظمة وعز وشرف، وبدأوا في الجهاد والانقلاب لإنقاذ الوطن من براثن الاستعمار. فقام السيد أحمد الشهيد والشيخ إسماعيل الشهيد أول مرة بعد حركة تجديدية فكرية للإمام الشاه ولي الله الدهلوي بتجربة التحرير والجهاد ضد الإنجليز فاستشهدا في هذا السبيل عام ١٨٣١م وفشلت حركة التحرير. ولكن نيران الجهاد التي أشعلها هؤلاء المجاهدون لم تخمد وإنما التهبت بصورة ثورة عام ١٨٥٧م فساهم فيها العلماء الأبطال بكل ما لديهم من قوة مادية ومعنوية وفي حماس بالغ ونشاط ملموس. ولكن هناك فرصة تستحق أن نفرد لها مكانا خاصا وهذه هي الوقعة التي دارت رحاها في المدن التابعة لمديرية "مظفر نكر" شمالي "ميرت" بين العلماء والإنجليز.

فعندما وقعت الثورة في دهلي كان تلامذة مدرسة الشاه ولي الله الدهلوي وأتباع السيد أحمد الشهيد المرشدون بطريقته يفكرون في القيام بعمل إيجابي. وأتباع السيد أحمد الشهيد لم يكفوا عن الحرب والجهاد حتى بعد استشهاد أميرهم في بالاكوت فلا عجب أن ينتهزوا الفرصة في هذه الثورة العامة ويخوضوا في غمارها.

قامت حركة ثانية للعلماء تحت قيادة الحاج إمداد الله التهانوي ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي والشيخ محمد قاسم النانوتوي والحافظ محمد ضامن. فشمر هؤلاء العلماء الأبطال عن سواعدهم ودعوا الناس إلى الجهاد وكونوا جيشا من

العلماء واختاروا الحاج إمداد الله إماما لهم، والشيخ محمد قاسم قائدا عاما والشيخ رشيد أحمد قاضيا. ومولانا محمد منير والحافظ محمد ضامن قائدين على الميمنة والميسرة. وكان هؤلاء جميعا محل ثقة من العامة فاجتمع المجاهدون حولهم من كل ناحية من أنحاء البلاد. وأتوا بأسلحتم وكانت كلها من الطراز القديم. وكانوا يتدربون على الفنون الحربية من قبل.

دارت الحرب بين العلماء والإنجليز في "تهانه بهون" التابعة "لمظفر نكر" فانتصر هؤلاء العلماء على الإنجليز وأقاموا فيها الحكم الإسلامي وأخرجوا منها الحكام الإنجليز ولما وصلت هذه الأنباء إلى الإنجليز تحركوا للقضاء على هؤلاء الأبطال بالأدوات الحربية المستجدة ومعهم مدافعهم متجهين إلى شاملي ولما علم العلماء بذلك بدأوا يفكرون كيف يمكن لهم أن يقاوموا مدافعهم بالسيوف المنكسرة والبنادق القديمة. ولم يلبثوا كثيرا حتى رأى الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي أن يغامر بخطوة جريئة ضد هذه القوة الزاحفة. فأسرع مع كتيبة تتكون من أربعين مجاهدا. وأخفوا أنفسهم وراء الأشجار في طريق هذه القوة حتى إذا مرت بهم أطلقوا عليهم بالرصاص. ففر الإنجليز وتركوا مدافعهم وأسلحتهم واستولى عليها المجاهدون وألقوها أمام الناس على باب المسجد. فأثار هذا الإقدام شعلة الجهاد في نفوس المجاهدين.

ثم دارت معركة حامية بينهم وبين الإنجليز في مدينة شاملي استشهد فيها الحافظ محمد ضامن قائد الميسرة وقد شارك في هذه المعركة جميع الأهالي حتى النساء والصبيان ولكن بعد فترة جائت الأخبار المؤسفة من دهلي حيث انهزم الثوار واستولى الإنجليز على دهلي من جديد. وهكذا كلها خمدت فيهم روح الحماس فلم يجد بدا من إلقاء السلاح، والتخلص من أيدي أعدائهم الذين أخذوا يطاردونهم لينتقموا منهم. فهاجر الحاج إمداد الله إلى مكة المكرمة وألقي القبض على الشيخ رشيد أحمد ويقي في السجن ستة أشهر إلى أن صدر قانون العفو العام فأفرج عنه. وأما الشيخ محمد قاسم النانوتوي

فقد اختفى حتى صدور قانون العفو العام فسلم من السجن٧

ومن الواضح أن ثورة عام ١٨٥٧م كانت شعبة عامة، قاتل فيها المسلمون والهندوس جنبا إلى جنب. ولم تعرف الهند حماسة وطنية ووحدة شعبية قبل هذه الثورة. ولكن كانت المساهمة للمسلمين أكثر من شعوب أخرى. وكان منهم العدد الأكبر والأهم من القادة الزعماء. وقد ساهم فيها المجاهدون الذين كانوا من أتباع السيد أحمد الشهيد فلذا نراه السر هنتر قال في هذا الصدد "إن جمرات الجهاد التى أشعلها السيد أحمد الشهيد في عام ١٨٣١م التي ألهبت نار هذه الثورة"٨

وكما ذكرنا سابقا أن القيادة لهذه الثورة كانت في أيدي المسلمين خاصة في أيدي العلماء الأبطال. وكان هؤلاء العلماء المجاهدون يحملون بهذه الروح المثالية العالية في فدائها وتضحياتها. فإن الكثرة العالية من المسلمين كانوا يشاركونهم من بعد. ويعملون ما يستطيعون لإظهار شعورهم نحو الإنجليز والحكومة الاستعمارية في صور مختلفة.

وقال سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي عنهم "وقد كان من أكبر العلماء والمشائخ الذين قادوا الثورة وأشهرهم مولانا أحمد الله ومولانا لياقت علي وهما اللذان تزعمها الحركة وكان الجنرال بخت خان هو القائد العام ونائب الملك. وكان الحاج إمداد الله والشيخ محمد قاسم والشيخ رشيد أحمد والحافظ محمد ضامن الشهيد وغيرهم من هم فيها وخاضوا في بعض المعارك وقد ذكر الكاتب الهندوسي سندري لال عددا من كبار المساهمين في هذه الثورة. منهم الشيخ أحمد الله خان بهاد بير علي وعلي كريم"٩

ويقول سندري لال "ما من شك أن اسم الشيخ أحمد الله الشاه من شهداء عام ١٨٥٧م سيخلد محترما في تاريخ شهداء الحرية في العالم"١٠

ولكن القدر شاء غير ما شاؤوا. فأخفقت الثورة وفشلت هذه الحركة الثانية أيضا. ودخلت الهند في الحكم المباشر للتاج البريطاني. ونتيجة لذلك شاع اليأس في

المسلمين خاصة والشعب الهندي عامة. ولكن العلماء الربانيون لم يقنطوا ولم تضمحل عزائمهم، فأخذوا يفكرون في طرق يمكن بها مقاومة الأغراض الاستعماريةم فقرروا تكوين جبهة قومية تعليمية يقومون بواسطتها مقاومة الغزو الفكري الإنجليزي في جانب والمحافظة على الثقافة الإسلامية في جانب آخر. ولهذا الغرض أنشئت في ديوبند جامعة إسلامية دار العلوم كقلعة إسلام ومعسكر للمسلمين.

الحركة الثالثة:

من المعلوم أن الحركة التى بدأها السيد أحمد الشهيد ما توقفت بعد استشهاده، بل كانت تجري في مختلف المناطق الهندية على أيدي أتباعه. وكان لهذه الحركة بعد وفاته مركزان. الأول في دهلي والثاني في صادق فور بتنه". أما مركز دهلي فغير أسلوبه ومنهجه وبدأ يعمل بطراز جديد من الفكر للاستقلال. واختار الطريق فيما بعد للمقاومة على القومية المشتركة. وهذه الفكرة هي التي اختار حزب المؤتمر الوطني بعد خمسين عاما وسماها "القومية المتحدة"

أما المركز الثاني في صادق فور بتنه، فتقلد وسار على منهجه القديم. وبدأ يحاول لتحرير الوطن عن الطريق الذي اختاره مؤسس هذه الحركة السيد أحمد الشهيد يعني الثورة الإرهابية وكانت استهدفت إلى الهجرة والجهاد والتضحية وما إلى ذلك.١١

قد أسس هذا المركز في صادق فور بتنة مولانا ولايت علي الذي كان من أتباع السيد أحمد الشهيد. وإنه زار السيد أحمد في بلدة لكناؤ حينا كان يحضر حلقة الدرس للأستاذ محمد أشرف. فتأثر بحركته تأثرا عظيما وبايع على يديه وعندما تخرج من تحصيل العلوم رجع إلى وطنه بتنة، بيهار حيث قام بإنشاء هذا المركز الإسلامي وبدأ يدعو الناس إلى الله ويحث المسلمين على الهجرة والجهاد.١٢

ثم قام بجولة في القرى والأرياف في ولاية بنغال وظل يحث الناس على الجهاد حتى وصل إلى كولكاتا. حيث قرر بديع الزمان إماما في مسجد مصريغنج بصفة خليفة له. ثم قصد إلى مومبائي وأقام بها شهرين يدعو الناس إلى الإسلام ينفخ

في قلوب المسلمين روح حب الحرية ويلهب شعلة الجهاد التي أشعلها شيخ السيد أحمد الشهيد فعندما رجع إلى صادق فور أعد المجاهدين حوالي خمس مائة وأرسلهم إلى بالاكوت حيث ألقي القبض عليه وكثير من أصحابه قتلوا. ولكن عندما أخرج من السجن بدأ ينظم المجاهدين من جديد. فأدرك الحكومةالإنجليزية هذا الخطر وقامت في القضاء عليهم وفي نهاية المطاف فشلت هذه الحركة الثالثة في عام ١٨٨٢م.

الحركة الرابعة:

ثم نشأت حركة رابعة أقوى وأعم تحت قيادة شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي رئيس هيئة المدرسين بدار العلوم ديوبند. وكان من أعضاء هذه الحركة الدكتور مختار أحمد الأنصاري ومولانا أبو الكلام آزاد والحكيم أجمل خان والحاج عبد الغفار خان ومولانا عبد الرحيم، والبروفيسور بركت الله وراجه مهندر برتاب سينغ وهرديال سينغ ورام جندر والشيخ عبيد الله السندي والشيخ مصنور أحمد الأنصاري والشيخ حسين أحمد المدني وغيرهم من كبار القادة.

وكانت هذه الحركة سرية جدا. أعد شيخ الهند خطة بدقة تامة. وحصل على مساعدة عدد كبير من علماء وكبار الشخصيات في طول العرض من بلد. كما حصل على دعم ومساعدة حكومة أفغانستان والخلافة العثمانية وألمانيا. وهذه الحركة الثورية تهدف إلى قضاء الحكم الإنجليزي من الهند. ولتحقيق هذا الغرض النبيل أرسل تلميذه الشيخ عبيد الله السندي والأمير مهندربرتاب والبروفرسور بركت الله إلى أفغانستان حيث قاموا بتأسيس حكومة موقتة هندية. وعقدوا اتفاقية مع روسيا وتركيا وألمانيا واتفقوا على أن تقام الثورة في داخل الهند يهاجم عليها من من الخارج هجمات قاسية لاستخلاص الوطن من براثن الاستعمار .

ومن سوء الحظ انكشف السر وعلم الحكام الإنجليز هذه المخططة واطلعوا على الخرائط التي كانت مرسومة على منديل حريري، ولهذا اشتهرت هذه الحركة بـ"حركة المناديل الحريرية" (أي) "ريشمي رومال، فألقى القبض على شيخ الهند

ورفـقـائـه وسـجـنـو فـي مالطه وهكذا فشلت هذه الحركة الرابعة التحريرية أيضا. ولـكنها خلفت آثارها في الحركات التحريرية الأخرى ومهدت السبيل لحركة أخرى على هذا النمط، على سبيل المثال. آزاد هند فوج لسباش جندر بوس" فطوبى لهؤلاء الأبـطـال الـذيـن ضـحـوا بأنفسهم وأموالهم وبكل ما لديهم من الطاقات والثروات في سبيل تـحرير الهند واستقلالها.

لـم يـكف الـعـلـمـاء الأبـطـال بـعـد فشل هذه الحركـات الأربعة الثورية ضد الاستعمار البريطاني. وإنما ظلوا يقامون الاستعمار عن طرق مختلفة. ولا حاجة لنا أن نـذكـر دور الـعـلـمـاء فـي مـقـاومة الاستـعمار البريطاني تـحت لواء حزب المؤتمر الـوطـني. فاشترك العلماء في حزب المؤتمر الوطني وعلى رأسهم الشيخ رشيد أحمد الـكـنـكـوهـي الـذي قـاد جيـش الـعلماء أيام الثورة عام ١٨٥٧م. والشيخ عبد القادر اللودهيانوي وغيرهم كثيرون.

يـقـول سـمـاحة الشيـخ الـنـدوي عـنهـم "إن عـددا كبيـرا مـن مفكري المسلمين الأحـرار، وفـي مـقـدتهـم عـلـمـاء الدين، كانوا يرون تأييد المؤتمر ويرون المساهمة في الـحـركـات السيـاسية الـوطـنية، ولايـعتـقـدون أن السيـاسة هي الشجرة الممنوعة لـلمسلمين، فأصدر الشيخ عبد القادر اللودهيانوي مجموعة من فتاوى وسماها "نصرة الأبـرار" فـي تأييد المؤتمر الوطني. سنة ١٨٨٦م وكان من الموقعين عليها كبار العلماء في حواضر الهند المشهورة، وفي المدينة المنورة، وبغداد. ومنهم العالم الرباني الجليل مولانا رشيد أحمد الكنكوهي والأستاذ الكبير مولانا لطف الله العليكرهي."

وكـان هـؤلاء الـعـلماء الذين عاونوا المؤتمر هذه المعاونة من المتحسمين ضد الإنـجليز، وكانت لهم مواقف خالدة فـي الـدفاع عن الوطن والكفاح ضد الاستعمار البريطاني في الهند.

حركة الخلافة:

بـدأت الـحـرب الـعـالمية الأولى في سنة ١٩١٤م إذ أعلنت بريطانى الحرب

ضد ألماني، ونزلت تركيا في هذه المعركة عن ألمانيا وشاركت أمريكا مع بريطانيا فدارت الحرب واستمرت نحو أربعة أعوام. وانتصرت فيها بريطانيا والبلدان الحليفة لها. وفي نهاية الحرب تصرفت الحكومة البريطانية مع السلطة التركية تصرفا مجحفاا وقسمتها إلى أجزاء. وقضت على الخلافة العثمانية، فتأثر المسلمون الهنود بهذه الحادثة تأثرا عظيما. ورفعوا صوتهم ضد هذا القضاء على أميرهم العثماني وأسسوا حركة باسم "حركة الخلافة" سنة ١٩١٩م تحت قيادة مولانا محمد علي جوهر وشوكت علي ومولانا أبي الكلام آزاد في تأييد الخلافة العثمانية والمحافظة على حرمات الأماكن المقدسة. وفي أثناء الحرب نجد أن أبا الكلام آزاد يدعو المسلمين والهندوس إلى مقاطعة الإنجليز وعدم الولاء لهم حتى زج به في السجن. وفي الوقت الذي كان يطوف المهاتما غاندي في البلاد تأثر بهذه الحركة عندما رأى حماسة المسلمين الدينية تجاه الخلافة. ولو أن قضية الخلافة كانت قضية تخص المسلمين ولكن بالرغم من ذلك أيدها المهاتماغاندي تأييدا قويا. وضمها إلى حركته عدم التعاون مع الإنجليز. فصارت هذه الحركة حركة قومية هندية. وفي مدة قليلة غابت حركة الخلافة من صفحة الأرض ولكنها تركت آثارا في سبيل تحرير الهند بحيث أنها وحدت المسلمين والهندوس على رصيف واحد.

خلاصة القول إن العلماء كانوا في طليعة المناضلين لتحرير البلاد وإجلاء المستعمرين. وقد قاد كثيرمنهم حركات المقاومة الفعالة، والثورات المسلحة بقدرة وشجاعة، فمنهم من قتل شهيدا ومنهم من شنق. ومنهم ينفى إلى جزائر اندمان أو إلى منفي جزيرة مالطه. ومنهم من قضى شطرا من حياته في السجون في داخل البلاد.

فالحق لنا أن نقول إن تاريخ حركة التحرير والاستقلال مقترن بتاريخ العلماء في الهند. فلا يمكن لنا أن نفصل أحدهما عن الآخر.

الحواشي والهوامش

(١) البعث الإسلامي. ص. ٧١، العدد ٩، جمادي الثانية، ١٤٢٠هـ

(٢) علمائے هند كا شاندار ماضي. ج ٢، ص. ٧٨، مولانا سيد محمد ميان

(٣) علمائے هند كا شاندار ماضي. ج ٣، ص. ١٠، مولانا سيد محمد ميان

(٤) الكفاح، ص. ٤، العدد ١١ أغسطس ١٩٨١م.

(٥) علمائے هند كا شاندار ماضي. ج ٢، ص. ١٨٣، مولانا سيد محمد ميان

(٦) علمائے هند كا شاندار ماضي. ج٢ ، ص. ١٩، مولانا سيد محمد ميان

(٧) معركة الشامل النضالية ص. ١٧، عبد المنعم النمر

(٨) المسلمون في الهند ص. ١٤٨. السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

(٩) المسلمون في الهند ص. ١٤٧. السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

(١٠) سن سنتاون، ص. ٢٠٨، سندري لال

(١١) علمائے هند كا شاندار ماضي. ج٣ ، ص. ٧—٨، مولانا سيد محمد ميان

(١٢) علمائے هند كا شاندار ماضي. ج ٣، ص. ١٤، مولانا سيد محمد ميان

(١٣) المسلمون في الهند ص. ١٦٠. السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

الفصل الثاني

مجهودات شيخ الهند في الحرية والاستقلال

أنجبت بلادنا الهند علماء أبطال ودعاة مصلحين كانوا عباقرة الزمان ونوابغ العصر. وقام هؤلاء العلماء المسلمون بتنفيذ بطولات مجيدة وخدمات عظيمة. وإن الآثار التي تركها هؤلاء العلماء الأبطال تدل على أمجادهم وخدماتهم الجليلة ومجهوداتهم الجبارة في سبيل تحرير البلاد. فإن تاريخهم العملاق الحافل بالكفاح والجهادومواقف البطولة والقيادة يوفر لهم من الدلائل والبراهين الساطعة في جميع مضامير الحياة.

فهناك رجال أوقدوا مصابيح العلم والعرفان في ربوع الهند وأناروها بأنوار التوحيد والعقيدة الطاهرة بإزالة ظلمات الشرك والجهل. وهناك دعاة مصلحون أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها فأصلحوا المجتمع وقاموا بمحو البدعات والمنكرات بكل مالديهم من عدة وعتاد. وهناك أبطال نهضوا للدفاع عن الدين والوطن كجندي وقائد عسكري فدافعوا عنه دفاعا مجيدا، وحافظوا عليه بكفاح مرير. فحولوا مجرى التاريخ وتيار الحياة.

ومن هذا الطراز من العلماء الأبطال كان محمود الحسن الديوبندي خلع عليه الشعب الهندي لقب شيخ الهند تقديرا واعترافا لخدماته الجليلة ومجهوداته الجبارة التي بذلها في تحرير الوطن. ومن المعلوم أنه كان من أتباع الشيخ محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي والحاج إمداد الله الذين لعبوا دورا هاما في الثورة الكبرى عام ١٨٥٧م وقادوا جيش العلماء في هذه الثورة حتى مكن

لهم أن يقيموا الحكم الإسلامي في "تهانه بهون" التابعة لمظفر نكر بولاية أترابراديش وأخرجوا منها الحكام الإنجليز. ثم تقدموا إلى مديرية شاملي،، هناك قامت معركة حامية بينهم وبين الإنجليز وهذه المعركة تعرف في التاريخ "بمعركة الشاملي النضالية" ولكن فشلت هذه الثورة لأسباب مختلفة بعد استشهاد الشيخ محمد ضامن، فلم يجدوا بدا من إلقاء السلاح والنجاة من أيدي الإنجليز. فهاجر الحاج إمداد الله إلى مكة المكرمة حيث سطع نجمه واشتهر بشيخ العرب والعجم. واعتقل الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي وظل في السجن نحو ستة أشهر حتى صدر قانون العفو العام فأفرج عنه، أما الشيخ محمد قاسم النانوتوي وقد اختفى حتى صدر قانون العفو العام.١

إن الفترة التي أعقبت هزيمة الثورة الهندية ضد الإنجليز كانت فترة يأس. فعندما انطفأ وهج هذه الثورة منحت الفرصة للإنجليز للهيمنة على هذه البلاد. فأذاقوا أهلها مرارة الانتقام وفتكوا بالعلماء المسلمين أشد الفتك بقلوب لاتعرف الرحمة ولإنسانية والذي يلفت النظر أنه شارك في هذه الثورة كل من الهندوس والمسلمين ولكن نصيب المكون المسلم للشعب الهندي في الشقاء والبؤوس كان كبيرا بالنسبة للمكونات الأخرى للشعب الهندي. فقامت الحكومة الإنجليزية بإحراق بيوتهم وتدمير ممتلكاتهم وإراقة دماءهم وإغلاق مدارسهم ومراكز علومهم. فأصيب المسلمون بجمود تعليمي واجتماعي وتسرب اليأس في نفوسهم وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم، كأن الدنيا أظلمت عليهم وضاقت الأرض عليهم، فأخذ يفكرون في طرق وأساليب يمكن عن طريقها مقاومة الأغراض الاستعمارية، فقرروا تكوين جبهة قوية تعليمية يقومون بواسطتها مقاومة الغزو الفكري الإنجليزي من جانب، والمحافظة على ثقافتهم الإسلامية من جانب آخر. فلم ير هؤلاء العلماء طريقا أمامهم إلا فتح المدارس العربية والمعاهد الدينية فقام العلماء الغيورون بإنشاء المدارس والمراكز التعليمية في مختلف أرجاء الهند ليستخدموا أساليب جديدة

لمطاردة الإنجليز. فأول مدرسة إسلامية من هذا النوع أنشأ هؤلاء العلماء المجاهدون كانت ببلدة ديوبند من ولاية أترابراديش عام ١٨٦٦م تحت رئاسة المجاهد الكبير الشيخ محمد قاسم النانوتوي. وبدأت الدراسة بها في مسجد صغير تشتة تحت شجرة رمان في فنائه بطالب واحد محمود الحسن الذي نتكلم عن مجهوداته وخدماته في تحرير البلاد.

ومن الملاحظ أن العلماء الكبار الذين أنشأوا هذه المدارس العربية تستولى الفكرة عليهم أن يربوا شبانهم تربية إسلامية بعيدة عن التيار الاستعماري الإنجليزي ويغرسوا في قلوب الطلاب فكرة الجهاد. لتكون هذه المدارس تلافيا لثورة عام ١٨٥٧م، ومن فضل الله تعالى أن هؤلاء العلماء قد بلغوا مراميهم المنشودة "وشاء الله أن يكون أول تلميذ في هذه المدرسة "دار العلوم ديوبند" محمود الحسن زعيما من زعماء الهند في جهادها ضد الإنجليز لطردهم من بلادهم حتى اعتقلوا في مالطة أثناء الحرب العالمية الأولى. بعد أن قبضوا عليه وعلى بعض زملائه في الحجاز. وظل معتقلا حتى سنة ١٩٢٠م وعاد إلى الهند يهتف الشعب باسمه ويخلع عليه لقب "شيخ الهند"٢

إن هذه المدارس الإسلامية قد لعبت دورا فعالا في تثقيف المسلمين والمحافظة على الدين وفي نشر الثقافة الإسلامية في أرجاء الهند كلها، كما لعبت دورا مجيدا في جعل الأفراد للمقاومة ضد الاستعمار البريطاني وغرس فكرة الجهاد في قلوب الناس حتى أصبحت هذه المدارس كقلعة الإسلام ضد المستعمرين وخير شاهد على ذلك صاحبنا شيخ الهند وهو أول متخرج في دار العلوم ديوبند.

بعد أن تخرج شيخ الهند في دار العلوم ديوبند التحق بهيئة التدريس فيها وفي عام ١٨٩٠م أصبح رئيسا لهيئة التدريس، ولكن لم يفضل حياة الهدوء والطمأنينة كما هو شأن هؤلاء العلماء في أغلب الأحوال بل خرج إلى ساحة الجهاد المسلح وتحدى المستعمرين. إنه كان رجل عمل، فأعد جماعة من تلامذته الأبرار

لحمل السلاح والجهاد والذين كانوا في جهة بمثابة جبال في العلم والتدين وفي جهة أخرى كانوا مثل صخرة في ميدان الكفاح المسلح. ومن أمثال الشيخ عبيد الله السندي وشيخ الإسلام حسين أحمد المدني والمفتي محمد كفايت الله والشيخ أنور شاه الكشميري وآخرين.

لم يبرز شيخ الهند على ساحة السياسة كالزعماء الآخرين. إنما كرس حياته في سبيل تحرير البلاد منذ ريعان شبابه وكانت نفسه قد شربت حب الحرية فانطلقت شحنات متدفقة من درس ثائر فائر وطاقات من عاطفة صادقة لا مخايلة فيها ولانفاق. فعندما أصبح مدرسا في (الجامعة) دار العلوم ديوبند شمر عن سواعده لهذا العمل وبدأ يربي الأفراد للمقاومة ضد الاستعمار البريطاني عن طريق سري فكان يرفع صوته على الاستبداد في أثناء دروسه ويحث الطلاب على الجهاد ويوقظ الوعي القوي في نفوسهم، وكان يركز على الطلاب الذين ينتمون إلى مناطق السند تركيزا خاصا ويربيهم تربية خاصة. وظل يعمل لحركة الثورة عن طريق سري حوالي أربعين عاما حتى إذ وقعت الحرب العالمية الأولى ظن أنه قد حان الوقت لإثارة الثورة في داخل الهند والمهاجمة عليها من خارجها.

إن الفترة ما بين ١٩٠٥م—١٩١٥م كانت مرحلة حاسمة من حيث الثورات القومية والدولية التي يعرفها كل من له أدنى إلمام بتاريخ حركة تحرير الهند. في هذه الفترة بدأ شيخ الهند حركته السرية بطرد المستعمرين الأجانب من البلاد. إنه كان على صلة مع الصفوة المسلحة التي تمثل مشاعر النقمة والغضب الشديد ضد الاستعمار. وكذلك كانت له صلات مع الثوار الهنود في البنغال وفي الولايات الأخرى بواسطة مولانا أبو الكلام آزاد.

بدأ شيخ الهند مجهوداته فعلا في تحرير البلاد بتأسيس جماعة "جمعية الأنصار" بل من المناسب أن نقول إنه بدأ محاولاته في سبيل تحرير الهند عندما أسس جمعية "ثمرة التربية" ونظرا إلى تلك المجهودات التي قام بها خلال دروسه

في (الجامعة) "دار العلوم ديوبند" فالحق لنا أن نقول إنه بدأ مجهوداته في تحرير البلاد قبل أن شاب، فنشأ وترعرع بهذه الفكرة منذ التحاقه بدار العلوم ديوبند. ولما أصبح مدرسا بدأ يغرس في قلوب الطلاب هذه الفكرة ـ فكرة الجهاد ـ التي حملها من شيخ محمد قاسم النانوتوي. فمن الناحية الفكرية إن هذه الجمعية "ثمرة التربية" تهدف إلى تدريب الناس وتحريضهم للمقاومة ضد الإنجليز ولأجلها تأسست الجامعة "دار العلوم ديوبند" لتكون تلافيا لثورة عام ١٨٥٧م. كما يقول "إن مدرستنا هذه لم تؤسس للتعليم فقط، بل لمواجهة مثل هذه الأمور والأحوال بالأولى بل الدرجة الأولى"٣

وفي عام ١٩٠٩م أسس شيخ الهند جمعية أخرى تمثل المتخرجين من دار العلوم ديوبند باسم "جمعية الأنصار" وذلك لمواصلة حركته السرية لتحرير الهند وكلف أحد تلاميذه الأبرار الشيخ عبيد الله السندي بتنظيم شؤنها. ومن الأغراض السامية لهذه الجمعية هو إيجاد الجو وإثارة الثورة ضد المستعمر الغاصب. فكانت أهدافها عبارة عن دعوة إلى الحرب العسكرية التي كان يحملها السابقون الذين أسسوا هذه الجامعة. وكان شيخ الهند هو أول تلميذ وأول متخرج في الجامعة فإنه يعرف جيدا أغراضها وأهدافها فكان يريد أن يحقق تلك الأغراض عن طريق "جمعية الأنصار" ويريد أن يخرج الشعب الهندي من عبودية الاستعمار، كما قال تلميذه النجيب عنه "وفي عام ١٩٠٩م طلبني شيخ الهند إلى ديوبند فأخبرته بكل ماكانت تجري عن نشاطات المجاهدين في السند. فأمرني أن أقيم معه في ديوبند واتولى أمور السند منها. فهكذا كنت مشغولا في أمور جمعية الأنصار لأربع سنوات تقريباً"٤

وفي مدة قليلة بدأت هذه الجمعية تحقق أهدافها وبدأت تظهر آثارها الوعي القوي والصحوة الوطنية في المسلمين خاصة والهندوس عامة. وبدأ الناس يرتبطون بهذه الجمعية ويجتمعون تحت لوائها. ويعتمدون على قادة العلماء المسلمين. هكذا أثارت جمعية الأنصار الناس ضد الحكومة الإنجليزية وألهبت جمرة الجهاد التي

أشعلها ثورة عام ١٨٥٧م فأدركت الحكومة الإنجليزية الخطر وخشيت على يقظة الهنود وعلى توحيدهم على منصة واحدة فظنت إذ تنجح هذه الجمعية في توحيد الناس كلهم من المسلمين والهندوس وإذ تبلغ مراميها في إيقاظ الوعي القومي في الهنود فلا يمكن لها أن تحكم هذه البلاد مدة طويلة. بدأ الحكام الإنجليز ينظرون إلى هذه الجمعية وأعضائها ومصدرها "دار العلوم ديوبند" بنظرة الشك والأحقاد. ففكروا كثيرا حتى وصلوا إلى نتيجة بأن ذرع بذور النفاق بين الهندوس والمسلمين هي خير وسيلة لإبقاء الحكومة الإنجليزية في الهند. فاتخذوا سياستهم الفاسدة "فرق تسد" وفي غضون ذلك تغيرت الظروف السياسية كما غيرت الأحوال العالمية بأسباب مختلفة حتى وقعت الحرب العالمية الأولى. فخاف شيخ الهند وأصحابه ومراقبو شئون الجامعة على بقائها. وكانت هذه الجامعة مركز أساسيا للمقاومة ومصدرا وحيدا لهذه الحركات والجمعيات فأوقفوا نشاطاتهم كلها خوفا من إقفال الجامعة. وأرسل شيخ الهند تلميذه البار الشيخ عبيد الله السندي إلى دهلي حيث قام بتأسيس مركز آخر تحت رئاسة شيخ الهند والنواب وقار الملك والحكيم أجمل خان والدكتور مختار أحمد الأنصاري وأبو الكلام آزاد. وسماه "نظارة المعارف" وهذه المنظمة الجديدة تهدف إلى نشر تعاليم القرآن في ضوء العلوم الطبيعية ما تطابق أحكام العقل والفكر. كما استهدفت هذه المنظمة إيجاد جيل يكون بلونه وعنصره هنديا وبعقله إسلاميا. فشمر الشيخ عبيد الله عن ساق الجد في إنقاذ الشباب المسلمين من براثن المسيحيين. ومن الواضح أن هؤلاء الشباب كانوا يتعلمون في الكليات الإنجليزية في دلهي فكان المسيحيون يغرسون في قلوبهم خلال دروسهم الشك والارتياب في إيمانهم ودينهم ويسألونهم في أثناء الدروس أسئلة طعنت في إيمانهم بالإسلام والقرآن. فكان الشيخ عبيد الله السندي يحاول إزالة هذه الأفكار من الكفر والإلحاد من قلوبهم ويزكيهم ويغرس في نفوسهم حب الإيمان ويثبت حقيقة الإسلام في ضوء العلوم الطبيعية والعصرية. وكان من عادته أن يوقظ خلال دروسه في القرآن روح

القومية والوحدة ويركز تركيزا خاصا على آيات الجهاد ويحث الشباب المسلمين على أن يقوموا للجهاد ضد الاستبداد والطغيان. فسرعان ما تثمر مجهوداته وبدأت تظهر آثارها حتى قدم إليه شيخ الهند يوما وقال له "مادامت الحكومة الإنجليزية تحكم البلاد وأنت تصلح في مدة عشرة أو عشرين رجلا من خلالها يبذر الإنجليز بذور الكفر والإلحاد في قلوب آلاف من المسلمين"٥

اضطرب شيخ الهند اضطرابا كثيرا بأحوال المسلمين وانحطاطهم عندما رأى أن الحرب العالمية الأولى فتتت الوحدة الإسلامية وأضعفت الأخوة الإسلامية وتكسرت خلافة المسلمين وقد قامت الدنيا وقعدت بالنسبة للمسلمين في العالم كله من هذا الانقلاب. وكان شيخ الهند يحمل في صدره قلبا سليما متألما للأمة الإسلامية وروحا مغامرة بنفسها في سبيل الإيمان. وكانت أنباء آلام المسلمين ومصائبهم تجعله يتململ. وكان يصنع نصب عينه في مثل هذه الأوضاع ماقاله النبي ﷺ من أن المؤمن كجسم واحد إن اشتكت عينه اشتكى كله. وإن اشتكى رأسه اشتكى كله، والمؤمنون يد على من سواهم" وكان شيخ الهند يريد أن ينتهز هذه الفرصة ضد الاستعمار البريطاني في الهند خاصة وفي العالم الإسلامي عامة لأنه رأى أن بريطانيا مشغولة في الحرب العالمية والمستعمرون مشغولون في شؤونهم الداخلية فإذا وقعت الثورة في داخل الهند وهاجمت عليها الحكومات الأخرى من خارجها فلا يمكن لها أن تهيمن على هذه الظروف فأرسل تلميذه الشيخ عبيد الله السندي إلى كابول في أفغانستان لقيادة الثورة المسلحة. وكان المجاهدون يأخذون العدة للجهاد في هذه المناطق الحرة. فغادر الشيخ عبيد الله السندي إلى كابول حيث رأى كل الإعداد للثورة التي أعدها شيخ الهند من خلال خمسين عاما فأعجب به كثيرا حتى قال في هذا الصدد "ولما وصلت إلى كابول علمت أن شيخ الهند كان أعد جماعة للمجاهدين خلال خمسين عاما. ومحاولات هذه الجماعة غير المنسقة التي تحتاج إلى خادم كمثلي لتحقيق أهدافها. فبدأت

أشعر بالغبطة على الهجرة كما اختارني شيخ الهند خادما لهذا العمل الجليل.٦

إن شيخ الهند هو أكبر قادة السياسة عرفته الأمة الإسلامية في عصرها الجديد الذي وقف حياته كلها على إيقاظ الوعي القومي في الهنود. وبذل كل ما في وسعه في توحيد الناس لإخراج الإنجليز من الهند. فإن دروسه في (الجامعة) دار العلوم ديوبند ملأت قلوب الطلاب بحب الوطن وحلاوة الإيمان وأشعلت في نفوسهم شعلة الجهاد. فلما وقعت الحرب العالمية الأولى وغلب المستعمرون الاتحاديون على الدول المفتوحة فتفرقوا تركيا وقسموها فيما بينهم وسلبوا من خليفة المسلمين نفوذه. أصدر شيخ الهند الفتاوى في هذا الخصوص ووزعها في كل ناحية من أنحاء البلاد وقدم مساعدات مالية إلى الأتراك ورغب المسلمين بكل نوع إلى مساعدة الأتراك ونظم اجتماعات واحتفالات في شتى أنحاء البلاد كما قامت (الجامعة) "دار العلوم ديوبند" بإنشاء مجلس "الهلال الأحمر" لتجميع التبرعات وتقديمها إلى الأتراك حتى أقفل شيخ الهند (الجامعة) "دار العلوم ديوبند" لمدة، وأرسل وفود الطلاب إلى جميع النواحي والأرياف في الهند لتمويل الأتراك. وبالإضافة إلى ذلك أن شيخ الهند تجول مع تلاميذه في الهند كلها ونشر شبكة هذه الحركة الدينية في كل قرية ومدينة وحرض حمية المسلمين الدينية وغيرتهم الإسلامية وحث هم على أن يبذلوا كل ما في وسعهم لصالح الأتراك.

"مع أن المسلمين في معظم المناطق كانوا قد أرسلوا ما توفرت لهم من تبرعات إلى القسطنطينية عاصمة تركيا بطرق موثوق بها غير أن الجامعة أرسلت مائة ألف روبية تقريبا قدمها بعض المسلمين. وتبرع بها طلبة الجامعة عن طريق البنك الوطني بمدينة مومبائي. وبالرغم من أن الجامعة خسرت كثيرا في ميزانيتها السنوية لأجل هذه التبرعات للأتراك. ولكنها لم ترض بتقصير أو إهمال في القيام بواجب إعانة الأخوة الأتراك الذين كانوا يضحون بأنفسهم في سبيل الدين".٧

أقبلت هذه المساعدة المالية الحكومة التركية الإسلامية وشكرت الجامعة

وأعطاها أنور باشا خليفة المسلمين "منديل الرسول" ﷺ كهدية وتذكار يوجد حتى الآن في (الجامعة) "دار العلوم ديوبند".

كان شيخ الهند يريد أن يوحد الحكومات الإسلامية أمثال إيران وتركيا وأفغانستان كي تهاجم على الهند من خارجها وإثارة الثورة من داخلها، ومن الجدير بالذكر أن الحكومة الإنجليزية هيأت الجو لاعتقاله كما اعتقلت كثيرين من الزعماء الكبار أمثال مولانا أبو الكلام آزاد. ومحمد علي جوهر ومولانا شوكت وآخرين فأخبره الدكتور مختار أحمد الأنصاري الذي كانت له وساطة في شؤون الحكومة. وقال لشيخ الهند "من الواجب عليك أن تخرج من الهند في أسرع وقت ممكن"٨

عزم شيخ الهند على السفر إلى الحجاز غير أنه لم يهتم بإخبار الناس وقبل خروجه انعقد حفلة في فصله الدراسي "نودرة" وقال في خطبته الوداعية "وإنما أتوجه إلى الحجاز لأتشرف بزيارة الحرمين الشريفين ومن الصعب علي تحديد الموعد للعودة إلى الوطن أتمكن من الرجوع إلى الهند إلا أنني لن آلو جهدا في أن أرجع إليكم في أسرع وقت ممكن"٩

سافر شيخ الهند في عام ١٩١٠م إلى الحجاز للحج والزيارة فوصل أولا إلى مكة حيث أقام بها مدة. وفي أثناء إقامته بمكة المكرمة قابل غالب باشا الأمير التركي وأخبره ما الذي جاء به وعن خطة للجهاد والتمس منه أن يكتب رسالة إلى مسلمي الهند في تأييد حكومة التركية الإسلامية فكتب له رسالة سرية هي رسالة اشتهرت في التاريخ باسم "غالب نامه" ولا مجال هنا أن نذكر محتوى تلك الرسالة خوفا من الطوالة. إلا أن هذه الرسالة تحث المجاهدين على الجهاد ضد الإنجليز الغاصبين. ثم أرسل شيخ الهند هذه الرسالة عن طريقة سرية إلى المجاهدين.

أراد شيخ الهند اللقاء مع وزير الحربية التركية والقائد العام للجيش العثماني فغادر مكة إلى المدينة المنورة حيث استقبله تلميذه البار الشيخ حسين أحمد المدني استقبالا حارا ولازمه ملازمة المتعلم. وهو حينذاك يدرس علم الحديث في المسجد

النبوي. وهيأ لشيخه فرصة للقاء مع أنور باشا وزير الحربية وجمال باشا القائد العام للجيش العثماني الرابع.

فأجرى شيخ الهند المحادثات مع هذين القائدين التركيين. وفاوضهما في إعانة المسلمين في الهند ونفي الإنجليز منها وأخذ منهما رسالة سرية إلى الشعب الهندي تتضمن الوعد بتأييد القضية الهندية ثم أراد أن يصل إلى الحدود الشمالية الحرة بين أفغانستان عن إيران. والتمس من جمال باشا أن يوصله بوساطته لكي يقود هذه الثورة المسلحة. فقال له جمال باشا "في الظروف الحالية هذا لا يمكن ذلك حيث أن روسيا أدخلت قواتها في إيران وأغلقت كل الطرق المؤدية إلى أفغانستان. فلابد أن تسكن في الحجاز حيثما تشاء أو في تركيا. أو ترجع إلى الهند عن طريق جده" ١٠

عندما حقق شيخ الهند هدفه للقاء مع وزير الحربية والقائد العام للجيش العثماني رجع إلى مكة ومنها غادر إلى الطائف حيث أقام مدة قليلة ثم غادر إلى مكة المكرمة مع أصحابه الشيخ حسين أحمد المدني والشيخ عزيزغل والشيخ وحيد أحمد والشيخ نصرت حسين حيث أقام بها مدة. وكان ذلك العصر عصر الحرب العالمية الأولى. وفي غضون ذلك خرج شريف حسين أمير التركي على الدولة العثمانية وبغى عليها وقدم على شيخ الهند وأصحابه نشرة تبحث استفتاء عن تكفير الأتراك. فلما أرسلت النشرة إلى شيخ الهند وامتنع عن التوقيع وقال إن هذه النشرة تخص علماء مكة والمدرسين بالحرمين الشريفين وأني رجل أجنبي فلا يجوز لي أن أوقعها أو أكتب فيها شيئا فخلاصة القول لما رفض شيخ الهند وصاحبه حسين أحمد المدني عن توقيع النشرة عن تكفير الأتراك غضب شريف حسين وأمر باعتقالهم ووصل أحد رجال الشرطة إلى المنزل الذي كان يقيم به شيخ الهند. وطلبه وأصحابه فلم يجد إلا حسين أحمد فاعتقله وجاء به إلى المحكمة الحميدية وأحضره أمام ناظر الشرطة الذي أمر بإدخاله السجن قائلا "إنك كنت تسمى حكومة شريف الحكومة الإنجليزية. وكنت تندد تنديدا شديدا فذق عذابك ذلك" ١١

ثم بدأت الشرطة تبحث عن شيخ الهند وأصحابه ولما فشلت تماما أبلغت الأمر إلى شريف حسين فاستشاط غضبا وأصدر الحكم "إن لم يقوموا بتزويد الشرطة بمعلومات لازمة عن شيخ الهند حتى صلاة العشاء فيجرد المطوف عن الثياب ويشرد ويعزل عن منصبه وأما رفقاء شيخ الهند والأخرين فيهلكون بإطلاق الرصاص عليهم"١٢

قد أثار هذا المرسوم الحكومي ضجة شديدة في سكان مكة بلد الله الحرام وخاف شيخ الهند على تلميذه وصاحبه. إنه لايريد أن يلحق ضررا بسببه فأحرم للعمرة وخرج وهو يتظاهر كأنه راجع من المدينة وقدم نفسه للاعتقال ولما انتشر هذا الخبر المؤلم في الهند شاع اليأس في الهند كلها وبذلوا رفقاؤه كل ما في وسعهم لإطلاق سراحه من السجن ولكن محاولاتهم ذهبت مع أدراج الرياح.

وبعد شهر واحد نقلتهم الشرطة إلى مصر حيث بدأت عملية الاستنطاق التي استغرقت حوالي خمس ساعات. وكانت الأسئلة من هذا النوع لماذا امتنع عن تأييد الفتوى الحكومي الذي أصدر الشيخ عبد الحق الحقاني ولماذا رفض عن توقيع النشرة التي أبرزت له من قبل حكومة شريف مكة. وماذا يعرف عبيد الله السندي وعن نشاطات المجاهدين في الحدود الشمالية في أفغانستان. وكذلك طرحوا عليه أسئلة كثيرة تمس اتهامات كاذبة اخترعها رجال المخابرات السرية بأنفسهم باتصاله مع غالب باشا وعن رسالته، ولقاء مع أنور باشا وجمال باشا والمحادثات تجري بينهم بحركة خطة الرسائل الحريرية التي كانت تجري في أفغانستان.ثم نقلوهم منها واعتقلوهم في مالطة حيث لبث شيخ الهند وأصحابه نحو ثلاث سنوات وشهرين وصابرا محتسبا عاكفا على الذكر والعبادة منصرفا إلى التربية راضيا بقضاء الله وقدره. ومات الحكيم نصرت حسين أسيرا في مالطة. وهذا هو أول مجاهد قدم حياته في سبيل تحرير الهند بعيدا عن الوطن.

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها صدر الأمر بإطلاق سراحهم ٣

في ديسمبر، ١٩٢٠م فوصل هذا البطل العظيم مع أصحابه الثلاثة إلى مومبائي حيث استقبلهم جم غفير من المواطنين الهنود استقبالا حارا بمن فيهم كبار السياسيين أمثال الدكتور مختار أحمد الأنصاري والزعيم البارز محمد على جوهر وشوكت على والمهاتماغاندي وغيرهم كثيرون. "احتفل هؤلاء العلماء والسياسيون احتفالا كبيرا وتقديرا واعترافا لخدماته الجليلة ومجهوداته النبيلة في سبيل تحرير البلاد ولقبوه بشيخ الهند حتى غلب لقبه على اسمه وكذلك اشتهر بعد ذلك في العامة والخاصة"١٣

وبعد رجوعه من مالطة في عام ١٩٢٠م إثر نهاية الحرب العالمية الأولى رأى شيخ الهند أن الهند امتلأت بهتافات استقلال الهند وأن بعض قادة المسلمين تعاونوا مع قادة حزب المؤتمر الوطني لتحرير الهند. وكان المسلمون ثائرين من أجل إنقاذ الخلافة العثمانية فقرر شيخ الهند بإقامة جمعية علماء الهند لقيادة المسلمين في الشئون الدينية والاجتماعية مع التعاون بالحزب المؤتمر الوطني من أجل تحرير الوطن على رصيف واحد. وقال لزعماء المسلمين في الهند. "إن استخلاص الوطن من سلطة الإنجليز من واجبات المسلمين فيلزمهم أن يواصلوا جهادهم بالاشتراك والتعاون مع المواطنين الآخرين لأنهم إن حاربوا منفردين لم يتم لهم النجاح بل يعودون خائبين"١٤

أكد شيخ الهند في مختلف المناسبات بأنه لا بد من الوحدة الطائفية من أجل النضال ضد الإنجليز ولتحقيق تحرير الوطن ولكن لهذه الوحدة الطائفية حدود. وهي أن لاتعارض حدود الله. وأن لا تتدخل أي طائفة في الشئون الداخلية لطائفة أخرى وكذلك لابد من مراعاة عواطف الطوائف المختلفة في الشئون السياسية.

أصدر شيخ الهند الفتوى في تحريم الموالاة والتعاون مع الإنجليز وقد وقع عليها خمسمائة عالم. ولذا قبضت الحكومة الإنجليزية على كبار العلماء وأدخلتهم سجن كراتشي. ثم بدأ شيخ الهند أن يجول في مختلف الأماكن في البلاد مع كبر

سنه وضعف بدنه وشدة مرضه ويحث المسلمين خاصة والمواطنين الهنود عامة على التعاون مع حزب المؤتمر في حركة عدم الموالاة ضد الحكم الإنجليزي. فحاضر وخاطب في كل أرجاء الهند. وكما شارك في جميع النشاطات للجامعة الملية الإسلامية فأسس الجامعة الملية الإسلامية في دلهي كما ترأس الدور السنوية لجمعية علماء الهند حتى وافاه الأجل وحالت دون مانوى.

فخلاصة القول إن حياة شيخ الهند كلها مليئة بالجهد والكفاح في سبيل تحرير البلاد من براثن الإنجليز. وأما الدور البارز الذي لعب شيخ الهند في تحرير الهند من خلال أعماله يستحق أن يكتب بماء الذهب في تاريخ تحرير الهند. فكان شيخ الهند سراجا منيرا يضيئ الطريق للجيل الحالي وللأجيال القادمة. وحياته كلها درس وعبرة لرواد ميدان الكفاح والنضال.

الحواشي والهوامش

(١) مجلة الداعي، ص. ١٨، العدد الخاص

(٢) كفاح المسلمين في تحرير الهند، ص. ٣٩، الدكتور عبد المنعم النمر

(٣) مقام محمود، ص. ١٩٩، مجموعة مقالات، مرتب: حبيب الرحمن

(٤) ذاتي ڈائري، ص. ٢٠، الشيخ عبيد الله السندي

(٥) أسيران مالٹا، ص. ٤٦، مولانا سيد محمد ميان

(٦) علمائے حق اور أن كے مجاهدانه كارنامے، ص. ٩٤، ج١، مولانا سيد محمد ميان

(٧) مجلة الداعي العدد ٩—١٠، ص. ٣٤، يناير ٢٠٠١م

(٨) حضرت شيخ الهند حيات اور كارنامے، ص. ١٦٢، مولانا أسيرادروي

(٩) مجلة الداعي، ص. ٣٠، يونيو—يوليو، ١٩٩٧م

(١٠) حضرت شيخ الهند حيات اور كارنامے، ص. ٢١٤، مولانا أسيرادروي

(١١) مجلة الداعي، ص. ٢٤، يونيو—يوليو، ١٩٩٧م

(١٢) أسيران مالٹا، ص. ٦٦، مولانا سيد محمد ميان

(١٣) مجلة الداعي، العدد ٦، ص. ٢٦، أكتوبر، ٢٠٠١ك

(١٤) الكفاح. ص. ٣، أغسطس، ١٩٧٥م

الفصل الثالث

حركة ريشمي رومال "خطة الرسائل الحريرية" ودورها في تحرير الهند

كانت حركة "ريشمي رومال" حركة سرية ضمن الحركات التحريرية الهندية استهدفت القضاء على الحكم الإنجليزي في الهند. وحاولت في إخراج المستعمرين من الهند بالقوة العسكرية المسلحة. ولكن لم تحتل هذه الحركة مكانة في تاريخ تحرير الهند كما ينبغي مثلما احتلت الحركات التحريرية الأخرى. أما السبب في إخفاءها سريتها، فإنها كانت حركة ثورة سرية لم يعرفها إلا من ساهم فيها. وأما السبب الثاني قيادتها من العلماء المسلمين الذين لم يريدوا بهذه الحركة شهرة كالزعماء الآخرين. بل إنهم يؤمنون بإخلاص الأعمال ولذا إنهم شاركوا في هذه الحركة ابتغاء لوجه الله في استخلاص الوطن من الاستبداد والظلم والطغيان ولاستعادة مجد الإسلام القديم في الهند. فلم نجد ذكر هذه الحركة إلا في قليل من الروايات التاريخية المشتملة على تاريخ الهند. ولم يتم إلقاء الأضواء على هذه الحركة ودورها البارز في تحرير البلاد. ومن المعلوم أن المصادر الموجودة عن هذه الحركة ماهي إلا تقارير لجنة رولات الإنجليزية فاعتبروها عبارة عن تمرد المسلمين الهنود على الحكومة الإنجليزيةفأطلقوعليها "خطة الرسائل الحريرية".

إن شيخ الهند قد وضع خطة سياسية للقضاء على الحكم الإنجليزي في الهند بالقوة العسكرية وهذه الخطة عرفت بـ"خطة الرسائل الحريرية" ثم اشتهرت بـ"خطة المنديل الحريري"١

كانت تهدف هذه الحركة إلى القضاء على الحكومة الإنجليزية الغاشمة في الهند، وبالتالي في سائر المستعمرات البريطانية وذلك باستخدام القوة المسلحة.

لم تظهر هذه الحركة على صفحة الأرض فجأة، بل إنها كانت نتيجة لمحاولة شيخ الهند امتدت على حوالي خمسين عاما. وكما ذكرنا سابقا أن شيخ الهند كان من أتباع الشيخ محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي والحاج إمداد الله الذين شاركوا في الثورة الكبرى عام ١٨٥٧م بكل حماس وطني ونشاط ملموس ولعبوا دورا فعالا في مقاومة الاستعمار البريطاني. وبعدما فشلوا في ميدان الحرب ضد الإنجليز قام هؤلاء العلماء الفيورون بإنشاء "دار العلوم ديوبند" ومراكز علمية أخرى كي يستخدموا أساليب جديدة أخرى لمطارد الإنجليز من بلادهم. وإن هؤلاء العلماء البارزين الذين أسسوا هذه المعهد للتعليم الإسلامي استولت الفكرة عليهم أن يربوا شبابهم تربية إسلامية بعيدة عن تيار الاستعمار الإنجليزي كما وأرادوا أن يغرسوا في نفوس الطلاب حمية الدين وكراهية المستعمر وروح الجهاد عن طريق تربية خاصة للمقاومة ضد الاستعمار.

وكان شيخ الهند هو أول متخرج على أيدي هؤلاء العلماء المجاهدين. فصاحبهم ورافقهم مدة طويلة وانتفع بهم وأخذ منهم هذه الفكرة -فكرة الجهاد- حتى أصبح تعبيرا صادقا لأحلامهم إذ أنه اتخذ طريقهم في تشريد الإنجليز بالقوة العسكرية المسلحة فلأجل ذلك أسس "ثمرة التربية" و"جمعية الأنصار" و"نظارة المعارف" لحشد الأفراد تحت لواء هذه المنظمات للمقاومة ضد الإنجليز الغاصبين. وظل شيخ الهند ينفخ روح حب الدين وروح الوطنية وفكرة الجهاد في نفوس الطلاب من خلال دروسه ويعد الأفراد للكفاح والنضال لأنه كانت أمامه الأهداف التي لأجلها قامت هذه المعهد أي دار العلوم بديوبند. كما يقول الشيخ حسين أحمد المدني عنه وهو خليفة له في الدين والسياسة "وكان من عادة شيخ الهند أن يلقي الدرس في حب الوطن ويركز تركيزا خاصا على الآيات القرآنية للجهاد ويحث

الطلاب عليه عندما وجد شعلة الجهاد في طالب يختاره ويربيه تربية خاصة ويبايعه على الجهاد."٢

ولما وقعت الحرب العالمية الأولى واشتغل المستعمر في شؤونهم الداخلية أراد شيخ الهند أن ينتهز هذه الفرصة ضد الاستعمار البريطاني لأنه رأى أن هذا هو الوقت المناسب أن تقام الثورة ضد الحكومة الإنجليزية في الهند. فأعد خطة سرية للثورة المسلحة للقضاء على الحكومة الإنجليزية وبدأ ينشئ مراكز سرية في مختلف الأماكن في الهند ومراكز أخرى للمهاجمة عليها من خارج البلاد. وأرسل تلميذه البار الشيخ عبيد الله السندي إلى كابول "المقر الرئيسي" لهذه الحركة حيث كان المجاهدون وكانوا من أتباع شيخ الهند مشغولين في إعداد الجهاد ضد الاستعمار البريطاني. كما أرسل بعض من تلاميذه وأصحابه في الحدود الشمالية الغربية وفي أفغانستان لقيادة هذه الثورة.

قد أعد شيخ الهند خطة من شتى النواحي لحركته السرية لإنهاء الحكومة الإنجليزية. فأول خطة أعدها شيخ الهند هي إقامة السفارات في الدول الأخرى فقام شيخ الهند بإرسال بعثات متعددة إلى الدول المختلفة، أرسل أول بعثة إلى الصين والبورما (ماينمار حاليا) تحت قيادة الشيخ مقبول الرحمن الذي كان تخرج في الجامعة الإسلامية "دار العلوم ديوبند" كان من السند. وجعل شوكت على مترجما لهذه البعثة ثم أرسل بعثة أخرى إلى اليابان تحت قيادة البروفيسور بركت الله. وهذه البعثة تتكون من خمسة أعضاء . والبعثة الثالثة إلى ألمانيا تحت قيادة تشودهري رحمت علي وعين رام جندر معينا له والبعثة الرابعة إلى أمريكا تحت قيادة هرديال سينغ وهذه البعثة تشكلت من ستة أفراد. وصل البروفيسور بركت الله من فرانسا إلى أمريكا. ولعبت هذه البعثات دورا فعالا في الحصول على التأييد من هذه الحكومات المختلفة حتى نجد أن ألمانيا أرسلت ثلاث طائرات زاخرة بالأسلحة إلى حدود الهند. ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل بسبب انكشاف السر

فرجعت هذه الطائرات مع الأسحلة.٣

أما الخطة الثانية التي أعد شيخ الهند هي إدخال أعضاء هذه الحركة في القوات الإنجليزية للمخابرات عن خريطة الحرب ولكي يتطلعوا عليه إذا هاجمت الحكومة الأخرى على الهند، فيمكن لهم أن يستعدوا للثورة العسكرية وأن يتآمروا ضد الإنجليز. قاد هذه الجماعة الدكتور مختار أحمد الأنصاري الذي كانت له وسيلة في الشئون الخارجية الهندية. وعلاوة على ذلك أدخل شيخ الهند الكثير من رجاله في القوات الذين يتظاهرون كأنهم أوفياء للحكومة الإنجليزية ولكنهم يتآمرون ضدها.

والخطة الثالثة: إن شيخ الهند أنشأ تسعة مراكز سرية في مختلف أرجاء الهند وهذه المراكز استهدفت حث الناس على الجهاد وإيجاد الجو للثورة الشعبية للتدريب العسكري وأسس شيخ الهند مركزا في لاهور تحت قيادة مولانا محمد أحمد جكوالي ومركزا في دين فور بولاية بهاولفور تحت قيادة مولانا أبو السراج غلام محمد، ومركزا في كراتشي تحت مولانا محمد صادق الذي أثار الثورة في "لس بيلا" ومركزا في إتمان زي تحت قيادة خان عبد الغفار خان، وترك زي تحت قيادة مولانا فضل واحد ربي. وكانت هناك مراكز أخرى في داخل البلاد تحث الناس على الثورة المسلحة ضد الحكومة الإنجليزية.

الخطة الرابعة: أنشأ شيخ الهند خمسة مراكز في خارج البلاد ومنها تركيا، والمدينة المنورة، وبرلين وقسطنطينية وأنقرة ومن الجدير بالذكر أن البعثة التي أرسلها شيخ الهند إلى ألمانيا قامت العلامة بين تركيا وألمانيا، وأما مركز كابول في أفغانستان كان هو المقر الرئيسي لهذه الحركة حيث أقام الشيخ عبيد الله السندي مع أصحابه حكومة موقتة هندية حصلت على تأييد حكومة أفغانستان وتركيا وروسيا وألمانيا.

وضع شيخ الهند هذه الخطط كلها لتخليص الهند من أيدي الإنجليز الماكرين وهيأ لها جماعة من تلاميذه وممن يثق بهم من أصحابه فأرسل بعض تلاميذه إلى أفغانستان وكان الاتصال بينه وبين تلاميذه وأصحابه في الحدود

الشمالية وفي أفغانستان. ولما تم ذلك ومهدوا الأرض للثورة، طلبوا من شيخ الهند أن يصل هناك لقيادة هذه الثورة. فأرسل شيخ الهند تلميذه البار الشيخ عبيد الله السندي إلى كابول فغادر إليها وتنفيذا لحكمه لأجل تحقيق منشود شيخه، إلى كابول وبيما شيخ الهند لم يخبره عن خطته وعن نشاطات المجاهدين خوفا من اعتقاله وانكشاف السر. فلما وصل الشيخ عبيد الله السندي وشاهد كل ما أعد شيخ الهند خلال خمسين عاما وعلم عن خطته للثورة المسلحة فأعجب به كثيرا حتى قال في هذا الصدد "ولما وصلت إلى كابول علمت أن شيخ الهند كان أعد الجماعة في خمسين عاما ومحاولات هذه الجماعة غير المنسقة التي تحتاج إلى اتحادها كما تحتاج هذه الجماعة لتحقيق هدفها خادما كمثلي. فبدأت أشعر بالغبطة على هذه الهجرة كما اختارني شيخ الهند خادما لهذا العمل."٤

بدأ الشيخ عبيد الله السندي أعماله وفقا لهذه الخطة التي أعدها شيخ الهند. فبعد ماجمع المجاهدين على منصة واحدة وتحت رأية واحدة، دربهم للمهمة قام بتأسيس حكومة هندية مؤقتة في كابول. وكان مهندر برتاب سينغ رئيسا لهذه الحكومة المؤقتة وتعين البروفيسور بركت الله رئيس الوزراء. وكان الشيخ عبيد الله السندي وزير الشؤون الهندية. ثم أقامت هذه الحكومة الموقتة إتصالات مع الدول الأخرى، من أمثال روسيا وتركيا وألمانيا وأرسلت بعثة إلى روسيا كما استقبلت وفدا من قبل حكومة ألمانيا. وتشكلت جماعة المجاهدين باسم "الجنود الربانية" وكان مركز لهذه الجماعة في المدينة المنورة أدار شيخ الهند لهذا الجيش "الجنود الربانية" بصفة القائد العام.٥

ولما استعد المجاهدون كل الاستعداد للثورة وطلبوا من شيخ الهند أن يحصل على تأييد الحكومات الأخرى للمهاجمة على الهند وإثارة الثورة ضد الحكومة الإنجليزية الغاشمة، سافر شيخ الهند إلى الحجاز وأقام بمكة المكرمة وقابل غالب باشا الأمير التركي سرا وحصل منه على رسالته في تأييد هذه الثورة.

وهذه هي الرسالة تعرف في التاريخ بـ"غالب نامه" ثم سافر شيخ الهند إلى المدينة المنورة حيث قابل أنور باشا وزير الحربية التركية وجمال باشا القائد العام للجيش العثماني. وفاوضهما في إعانة المسلمين في الهند ونفي الإنجليز الماكرين منها. وأخذ منهما رسائل سرية إلى الشعب الهندي تضمنت الوعد لتأييد القضية الهندية وأرسلها إلى المجاهدين عن طريق سرية. فلما وصلت هذه الرسائل "غالب نامه" ورسالة من قبل الحكومة التركية الإسلامية وهذه الرسائل حثت الناس على الجهاد وإبعاد المستعمرين من بلادهم نفخت هذه الرسائل روح الجهاد في قلوب المجاهدين. ثم أرسل شيخ الهند رسالة إلى الحكومة المؤقتة وطلب منها تعيين تاريخ الحملة كي يصل الجيش العثماني حسب الخريطة. ومن الجدير بالذكر أن الخطة التي أعدها شيخ الهند استهدفت المهاجمة على الهند بالقوات الخارجية وإثارة الثورة من مراكز الجهاد من داخلها. فهكذا لايمكن للحكومة الإنجليزية أن تهيمن على هذه الظروف فجأة. ولايكون المفر للإنجليز إلا الخروج من الهند. فأجاب الشيخ عبيد الله السندي برسالة مكتوبة على قماش حريري وفيه توقيع الحكومة الموقتة وحكومة أفغانستان وتعين تاريخ الحملة ١٩ من فبراير عام ١٩١٧م وأرسلها إلى شيخ الهند في المدينة المنورة كي يطلع شيخ الهند الحكومة التركية حتى ترسل قواتها إلى أفغانستان ومن هنا أن تتم المهاجمة على الهند. وكاد العمل يتحقق وظهرت بارقة النجاح المهمة إذ انكشفت الخطة. وكانت هذه الرسالة التي عثر عليها رجال المخابرات الإنجليزية مكتوبة على قماش حريري ولأجلها سماها "خطة الرسائل الحريرية" ثم اشتهرت بخطة المنديل الحريري بين عامة الناس فأسر شيخ الهند مع أصحابه في مكة المكرمة واعتقلوهم في مالطة. وبقوا في السجن ثلاثة أعوام وشهرين ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وأخفقت هذه الثورة تماما صدر الأمر بإطلاق سراحهم، إذا قمنا بدراسة تحليلية لهذه الحركة ودورها البارز في تحرير الوطن لوصلنا إلى نتيجة بأنه لو كانت هذه

الخطة حظيت بالنجاح فما كان بإمكان لحكومة الإنجليزية أن تحكم هذه البلاد طويلا. وهذه هي الخطة التي تعرف "بخطة الرسائل الحريرية" ووثائقها تدل على شخصية شيخ الهند السياسية وبصيرته النافذة.

قيض الله شيخ الهند للقيام بخطة سياسية شاملة التي عرفت بخطة الرسائل الحريرية. وكان أكثر الناس غيظا على الإنجليز فكرس حياته كلها في استخلاص الوطن من براثن المستعمرين وهيأ جماعة من تلاميذه الذين ساهموا في حركة التحرير لمطاردة الإنجليز في حياة شيخهم وحتى بعد وفاته.

وقد اشتهر شيخ الهند عن طريق تلاميذه بخدماتهم الوطنية والسياسية وهم الشيخ عبيد الله السندي والشيخ محمد منصور أحمد الأنصاري وكلاهما هاجرا إلى كابول لتنفيذ الخطة التي أعدها شيخ الهند لتحرير الوطن والثالث هو شيخ الإسلام حسين أحمد المدني الذي لعب دورا فعالا في سياسته الهندية في حياته ولما استقلت الهند قدمت له الحكومة الهندية المستقلة جائزة "بدم بهوشن" اعترافا وتقديرا لخدماته السياسية في تحرير الهند. وقد شارك معهم في هذه الحركة أمثال الشيخ عبد الباري الكناوي والشيخ أحمد علي اللاهوري وغيرهم كثيرون. واستمروا في جهودهم حتى استقلت الهند في عام ١٩٤٧م.

فخلاصة القول إن شيخ الهند وضع خطة سياسية للقضاء على الحكم الإنجليزي بالقوة العسكرية المسلحة. ومن الجدير بالذكر هنا أن شيخ الهند في نفس الوقت كان عاكفا على التدريس والإفادة إلا لفترة أسره في مالطة.

ومن الواضح أن المتحف البريطاني يحفظ الوثائق وتقارير الحكومات البريطانية لكامل تفاصيلها عن هذه الخطة التي تهدف إلى القضاء على الحكم الإنجليزي في الهند وبالتالي في سائر المستعمرات البريطانية وذلك باستخدام القوة المسلحة.

وتحدثت بذلك لجنة الإنجليز عرفت باسم "لجنة رولات" حيث جاء في تقريرها "إن الحكومة كشفت هذه الحركة في أغسطس سنة ١٩١٦م وكانت تهدف

إلى إنهاء الحكم البريطاني في الهند بالهجوم عليها من الحدود الشمالية الغربية من الخارج والثورات الداخلية فجأة في نفس الوقت"٦

قد لعب شيخ الهند دورا هاما في تحرير الهند بتأسيس هذه الحركة السرية لاستخلاص الوطن من براثن الإنجليز وهكذا أدى الأمانة التي حملها من الشيخ محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي. وبلغ رسالة "الجامعة" "دار العلوم ديوبند" التي لأجلها قامت في المقاومة ضد الاستعمار البريطاني في الهند. يقول عن ذلك الشيخ أبو الحسن علي الندوي.

"كان رئيس أساتذة دار العلوم ديوبند مولانا محمود حسن الذي اشتهر بعد بلقب شيخ الهند من كبار الحاقدين على الحكومة الإنجليزية. ولانعرف أحدا بعد السلطان تيبو من يبلغ مبلغه في عداء الإنجليز والاهتمام بأمرهم. ومن كبار أنصار الدولة التي كانت زعيمة العالم الإسلامي. وحاملة لواء الخلافة وكان من كبار الدعاة إلى استقلال الهند وتأسيس الحكومة الوطنية الحرة. وكان من الذين ملكتهم هذه القضية وتفاني فيها."٧

إن الخطة التي أعدها شيخ الهند لتحرير الهند تمثل بابا ذهبيا في تاريخ حركة تحرير الهند. وإن البطولات التي قام بها هؤلاء الأبطال الأبرار تستحق بأن تكتب بماء من ذهب وإن الحركة التي أسسوها تنير الطريق للجيل الحالي وللأجيال القادمة. والحق أن شيخ الهند كان قائدا سياسيا وبطلا حرا من طراز ممتاز لا ويوجد له مثيل وإليه يرجع الفضل في تأسيس هذه الحركة السرية التي عرفت بـ"حركة ريشمي رومال" التي خلفت آثارها بعيدة المدى. وبالرغم من أن هذه الحركة أصبحت اليوم حركة مجهولة في تاريخ تحرير الهند. ولكن دورها البارز الذي لعب هذه الحركة في تحرير الهند لايمكن لأحد أن يغض عنه البصر. وإن الآثار التي تركتها الحركة تنطق لنفسها لاسبيل إلى انكارها والجحود بها.

ومع أن هذه الحركة لم تتكلل بالنجاح ولكن ذلك لايعني أنها فشلت كليا

وتماما، بل لم تزل جمراتها باقية ومشتعلة لم تبرح آثارها وثمارها تظهر للناس إلا أن الظروف غيرت وجهة الحركة وصورتها. كما غير شيخ الهند نظريته بعد رجوعه من مالطة من العنف والثورة إلى الأساليب السليمة لتحرير الهند، ولو أن هذه الحركة الثورية فشلت في تحقيق أهدافها ولكن مهدت السبيل للحركات التحريرية الوطنية الأخرى لاستخلاص الوطن. وقدمت لها نمطا جديدا في مقاومة الاستعمار البريطاني. كما نجد أن حركة شباش جندر المتثملة في "آزاد هند فوج" قامت على نمطها بعد عشرين عاما.

خلف شيخ الهند جماعة من تلاميذه وأصحابه الذين كانوا دائبين متواصلين في هذا الجهد وعلى رأسهم شيخ الإسلام حسين أحمد المدني الذي كان خليفة له في الدين والسياسة وله دور مجيد في السعي لاستعادة مجد الإسلام القديم في الهند والإخلاص لها والتفاني في سبيلها والعداء الشديد للإنجليز والحماس للقضية الوطنية حتى أعدهم الله تعالى لتحرير هذه البلاد.

الحواشي والهوامش

(١) مجلة الداعي، ص. ١٦، العدد الخاص.

(٢) نقش حيات، ص. ٢٣—٢٧. مولانا حسين احمد مدني.

(٣) حضرت شيخ الهند حيات اور كارنامے، ص. ١٩٦ مولانا اسيرادروي.

(٤) علمائے حق اور ان كے مجاهدانه كارنامے، ص. ٩٤، ج١. مولانا سيد محمد ميان

(٥) تحريك أزادي هند ميں مسلم علماء كا كردار. ص. ٨٢، محمد سليمان منصوربوري.

(٦) كفاح المسلمين في تحرير الهند، ص. ١٢٤، الدكتور عبد المنعم النمر

(٧) المسلمون في الهند، ص. ١٧٩، أبو الحسن علي الندوي.

الخاتمة

الخاتمة

وخلاصة البحث إن شيخ الهند هو أكبر قادة عرفته الأمة الهندية في تاريخ تحرير البلاد وقد تحير بعض الناس على ذلك أنه كان ينتمي إلى أسرة دينية، وكان عالما كبيرا وبارعا ومتقنا للعلم الحديث والفقه الإسلامي لا علاقة له بالسياسة و القيادة. ولكن مع ذلك لعب دورا هاما في مصلحة الوطن وفي إيقاظ القومية بين الهنود وهي أمر لا يتوقع تحقيقه من مثل هذا الرجل. وفي الواقع هذه كلها ليس من الغرائب والعجائب ومن خصائص تعاليم الإسلام التي تحث على نظام الجمهورية والمساواة الإنسانية والحرية البشرية والتي حرضته على الثورة ضد العبودية السياسية.

لو ألقينا نظرة عابرة على تاريخ الحكم الإنجليزي في الهند لوجدنا أن الهنود كانوا ضد حكومة الشركة الهندية الشرقية الغاشمة وسياستها الفاسدة منذ البداية، وبالتالي لم تكسب الحكومة الإنجليزية تأييد الشعب الهندي قط.

إن الظروف في الهند بدأت تتغير عقب دخول القوة الاستعمارية لأن النظام الاستعماري قد فتح بابا جديدا في تاريخ الهند. وجعل الإنجليز من إحكام السيطرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية مع امتداد الاستيلاء على أرجاء الهند المختلفة. وإن هذه السياسة الغاشمة أثارت الناس ضد الحكومة الإنجليزية. وكذلك الخصومة الذاتية والتدخل في الأمور الدينية والداعية الاقتصادية كانت من أهم أسباب الاضطراب التي دعت إلى الثورة الشعبية.

ولما فشلت الثورة ، فسدت أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية كلها بمنتهى الغاية. فأصيب المسلمون بجمود تعليمي واجتماعي

واقتصادي. فتسرب اليأس إلى نفوسهم وأظلمت الدنيا عليهم. فأخذوا يفكرون في طرق يمكن بها مقاومة الغزو الاستعماري.

وقد ظهر في هذه الأحوال السيئة نوعان من القيادة في المسلمين القيادة الدينية والقيادة التعليمية. أما العلماء الذين يتزعمون القيادة الدينية فقاموا بإنشاء المدارس الإسلامية وأرادوا حسب زعمهم أن يعدوا جيلا جديدا للمقاومة ضد الاستعمار. ولا شك في أن هذه المدارس لعبت دورا فعالا في تثقيف المسلمين والمحافظة على الدين وفي نشر الثقافة الإسلامية في أرجاء الهند كلها. كما لعبت دورا مجيدا في إعداد الرجال للمقاومة ضد الاستعمار البريطاني.

وكان محمود الحسن الملقب بشيخ الهند ممثلا لهذه الأجيال الناشئة البعيدة عن التيار الاستعماري. فنشأ وترعرع في العصر الذي كان مليئا بالأحداث والوقائع مثيرا للخواطر. فلا بد أن يتأثر شيخ الهند بتلك الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وقد شاء الله أن يكبر هذا البطل العظيم في أحضان هؤلاء العلماء العظام الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم وكل ما في وسعهم من الطاقات والثروات في سبيل استخلاص الهند من براثن الاستعمار البريطاني. فكان شيخ الهند منذ شبابه الباكر يطالع ويتعلم ويلهم الثورات وهو في حلقات هذه الحياة صاحب الرأي وداعية الإصلاح فلم يكن من شأنه أن يجلس في غرفة الدراسة منعزلا عن الدنيا وعن المساهمة في الكفاح ضد الاستعمار البريطاني لتحرير البلاد. هذه هي العوامل والأسباب التي جعلته قائدا سياسيا وبطلا حرا في سبيل تحرير الوطن. وكان هذا الطموح للحرية الدائمة التي أخرجته من عزلة الحياة إلى مجال السياسة.

ولما رأى شيخ الهند أن بريطانيا مسيطرة على الهند كلها فلم يطق صبرا على أن يبقى وطنه وأبناء هذه البلاد تحت العبودية الإنجليزية وبدأ يفكر في

إخراج الناس من براثن الاستبداد كما يفكر عن الطريق لإخراج الأنجليز الغاصبين من الهند. فلم يجد أمامه طريقا إلا بالثورة المسلحة وإن الثورة تحتاج إلى الرجال والوسائل. وقد وجد أمامه جماعة من الطلبة. فرأى إذا أنه ربى هؤلاء الطلاب تربية خاصة فيمكن لهم أن يغيروا مجرى التاريخ فنهض بهذه الفكرة وبدأ يوقظ الوعي القومي وحب الوطن في طلاب الجامعة ويحثهم خلال دروسه على الجهاد ضد الاستبداد الإنجليزي. وكرس حياته كلها في إيقاظ القومية وتوحيد المسلمين والهندوس والشعوب الهندية المختلفة على رصيف واحد. لأنه كان يعلم أن استخلاص الوطن لا يمكن الحصول عليه بدون الاتحاد بين الشعوب الهندية. فحمل شيخ الهند لواء الاتحاد القومي وأيد التسامح الديني برحابة صدره. فإنه أوجد الاتحاد بين أهالي الهند وأعلن الحرب ضد عناصر التفريق والتشتيت وعلم الناس كيف تعيش الشعوب على اختلاف القوميات في انسجام وائتلام. وقد أفهم المواطنين الهنود أن مصيرهم مشترك ترتبطهم الصلات القومية والوطنية. كما ألح أن يتعايشوا كأفراد أسرة وكأمة واحدة في ظل النظام العلمانية التي تسمح لكل طائفة أن تعيش في أمن وسلام. وتمتع بالحرية الكاملة للممارسة على دياناتهم المختلفة.

بذل شيخ الهند مجهوداته من أجل تحرير البلاد بتأسيس جمعيات عديدة أمثال "ثمرة التربية"، "جمعية الأنصار"، و"نظارة المعارف". وهذه الجمعيات كلها تهدف إلى إيقاظ القومية في المواطنين الهنود وإعداد الرجال للمقاومة الاستعمار البريطاني.

ولما وقعت الحرب العالمية الأولى أراد شيخ الهند أن ينتهز هذه الفرصة للثورة المسلحة ضد الحكومة الإنجليزية في الهند والتي كان هدفه المنشود منذ تخرجه من دار العلوم ديوبند سنة ١٨٧٨م. فأعد شيخ الهند خطة بدقة تامة وأنشأ

عديدا من المراكز في داخل الهند وخارجها ثم أرسل بعضا من تلاميذه إلى كابول في أفغانستان حيث قاموا بتأسيس حكومة موقتة هندية. ولما تم الإعداد سافر شيخ الهند إلى المدينة المنورة للحصول على تأييد الحكومات الأخرى أمثال تركيا وألمانيا وأفغانستان لدعم عسكري في هذه الثورة المسلحة.

وكانت الخطة التي أعدها شيخ الهند تهدف إلى أن تهاجم الحكومات الأخرى على الهند وتقام الثورة في داخل الهند من مراكزها السرية. فلا يمكن للحكومة الإنجليزية الهندية أن تواجه هذه الظروف فجأة ولا يمكن لها إلا الخروج من الهند. وكاد العمل يتحقق وظهرت بارقة النجاح المهمة إذا انكشفت الخطة. وفشلت الحركة. وكانت هذه الرسالة التي عثر عليها رجال المخابرات الإنجليزية مكتوبة على قماش من الحرير ولأجل ذلك عرفت بخطة الرسائل الحريرية ثم اشتهرت بخطة المنديل الحريري. ولو أن هذه الحركة فشلت ولكنها تركت آثارا بعيدة المدى في الحركات التحريرية والوطنية الأخرى ولها دور كبير في تحرير البلاد بحيث أنها مهدت السبيل للثورة من خارج الهند وقدمت نمطا للمقاومة ضد الاستعمار البريطاني. وهذا هوا النمط الذي اختارته فيما بعد حركة سبهاش جندر بوس لتحرير الوطن.

ولاشك في أن الخطة التي أعدها شيخ الهند لتحرير البلاد تمثل فصلا ذهبيا في تاريخ الحركات التحريرية الوطنية. وإن الأبطال من العلماء الذين أعدهم شيخ الهند بجهد متواصل خلال خمسين عاما للمقاومة ضد الاستعمار البريطاني لا نظير لهم في التاريخ. وإن الدور الذي لعب شخ الهند في تحرير الوطن من براثن الإنجليز يستحق أن يكتب بماء ذهبي وإن الآثار التي تركتها هذه الحركة "ريشمي رومال" تنطلق بذلك نطقا في صفحات تاريخ الهند. ولاتزال آثارها باقية حتى الآن.

المراجع والمصادر

المصادر والمراجع

الكتب العربية

١ سيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، المجمع الإسلامي العلمي لندوة العلماء لكناؤ، ١٩٩٨م

٢ سيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، المسلمون في الهند، المجمع الإسلامي العلمي لندوة العلماء لكناؤ، ١٩٩٨م

٣ سيد عبد الحى الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، مطبع دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٧م

٤ سيد عبد الحى الحسني،الهند في العهد الإسلامي، مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد دار عرفات، راى بريلي، الهند، ٢٠٠١م

٥ النمر الدكتور عبد المنعم، تاريخ الإسلام في الهند، دار العهد الجديد القاهرة

٦ النمر الدكتور عبد المنعم، كفاح المسلمين في تحرير الهند، مكتبة وهبية ١٤ شارع الجمهورية، بعابدين مصر، ١٩٦٤م

٧ الندوي الدكتور عبد الحليم، مراكز المسلمين التعليمية والدينية في الهند، كتبة نوري المحدودة، مدراس، ١٩٧٧م

٨ البرني الدكتور عبد الرحمن، علماء ديوبند وخدماتهم في علم الحديث، إكاديمية بشيخ الهند دار العلوم ديوبند، ١٩٩٨م

٩ خيرآبادي علامه فضل حق، الثورة الهندية، المجمع الإسلامي، مباركفور، ٢٠٠١

الكتب الأردية

١ ـ مولانا سيد محمد ميان، تحريك شيخ الهند، الجمعية بك ڈپو، دهلى ٦

٢ ـ مولانا سيد محمد ميان، علمائے هند كا شاندار ماضى، كتابستان قاسم جان اسٹريٹ دهلى ٦، ١٩٥٧م

٣ ـ مولانا سيد محمد ميان، اسيران مالٹا، دار الكتاب ديوبند، ٢٠٠٢م

٤ ـ مولانا سيد محمد ميان، علمائے حق اور ان كے مجاهدانه كارنامے، فيصل پريس ديوبند، ٢٠٠٣م

٥ ـ مولانا سيد محمد ميان، مسلم علماء كا كردار، فيصل پريس ديوبند، ٢٠٠٣م

٦ ـ مولانا حسين احمد مدنى، نقش حيات، مكتبة ديوبند، ١٩٩٩م

٧ ـ مولانا حسين احمد مدنى، سفرنامه اسير مالٹا، مكتبه ديوبند، ١٩٩٨م

٨ ـ سيد اصغر حسين، حيات شيخ الهند، كتب خانه رحيميه ديوبند، ١٩٨٦م

٩ ـ مفتى عزيز الرحمن، تذكره شيخ الهند، اداره مدنى دار التاليف، بجنور ١٩٧٠م

١٠ ـ ابو سلمان شاهجهان پورى، شيخ الهند محمود الحسن ديوبندى، ايك سياسى مطالعه، مجلس يادگار شيخ الاسلام پاكستان، ١٩٩٤م

١١ ـ ابو سلمان شاهجهان پورى، شيخ الاسلام ايك سياسى مطالعه، مجلس يادگار شيخ الاسلام پاكستان، ١٩٩٤م

١٢ ـ محمد سلمان منصورپورى، تحريك آزادى ميں مسلم علماء كا كردار، زمزم بك ڈپو ديوبند، ١٤٢١ھ

۱۳ ۔ مولانا اسیر ادروی، حضرت شیخ الهند حیات اور کارنامے، شیخ الهند اکیڈمی دار العلوم دیوبند، ۱۹۹۸م

۱٤ ۔ مولانا حبیب الرحمن قاسمی، (مرتب) مقام محمود، شعبه نشر واشاعت جمعیه علماء دهلی،

۱٥ ۔ ابو سلمان شاهجهان پوری، مولانا عبید الله السندی اور انقلابی منصوبه، خدا بشخ اورینٹل پبلك لائبریری پٹنه، ۱۹۸۳م

۱٦ ۔ سید محبوب رضوی، (مرتب) تاریخ دار العلوم دیوبند، اداره اهتمام دار العلوم دیوبند

۱۷ ۔ مولانا اسیر ادروی، تحریك آزادی اور مسلمان، شیخ الهند اکیڈمی دار العلوم دیوبند، ۱۹۹۸م

۱۸ ۔ شیخ محمد اکرام، موج کوثر، ادبی دنیا مٹیا محل دهلی، ۱۹٦۲م

۱۹ ۔ ابو الحسن علی الندوی، سیرت سید احمد شهید، المجمع الاسلامی العلمی لکناؤ،

۲۰ ۔ مولانا وحید الدین خان، فکر اسلامی، مکتبه الرساله نئی دهلی، ۲۰۰۱م

۲۱ ۔ مولانا وحید الدین خان، تجدید دین، مکتبه الرساله نئی دهلی، ۱۹۸۷م

۲۲ ۔ سید ابراهیم فکری، هندوستاني مسلمانوں کا جنگ آزادی میں حصه، ۱۲، ۱٥، غفار منزل جامعه نگر نئی دهلی، ، ۱۹۹۹م

الكتب الإنجليزية

1. Bipan Chandra, India's Strugle for Independence, Penguine Books, Delhi, 2001
2. Bipan Chandra, Freedom Struggle National Book Trust, New Delhi, 2004
3. Nehru J. L. The discovery of India, Asia Publishing House, Mumbai, 1972
4. Mujeeb M, Indian Muslim, Munshiram Manoharlal Publisher, New delhi, 1985
5. Maulana Abul Kalam, India Wins Freedom, National Book Trust, New Delhi, 1993

الجرائد والمجلات

١ـ الكفاح، اكتوبر، ١٩٨٦م، جمعية علماء الهند
٢ـ البعث الإسلامي، العدد ١٠ المجلد ٤٤
٣ـ الداعي، العدد الخاص
٤ـ الداعي، من عام ١٩٨٦م إلى ٢٠٠٣م
٥ـ ثقافة الهند، العدد ١، المجلد، ٥٥
٦ـ صوت الأمة، شوال المكرم، ١٤٢٥هـ
٧ـ فكر ونظر، جلد ٣٢، شماره ٢، ١٩٩٥م

المحتويات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٤
	الباب الأول: شيخ الهند محمود الحسن ـ عصره وحياته	٩
٢	الفصل الأول: الأوضاع السياسية والاجتماعية في عهد شيخ الهند.	١٠
٣	الفصل الثاني: شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي ـ حياته وشخصيته.	٢٩
٤	الفصل الثالث: شيخ الهند وآثاره العلمية ومكانتها.	٤٤
٥	**الباب الثاني: الأعمال السياسية لشيخ الهند بخصوص إيقاظ الهنود.**	٥١
٦	الفصل الأول: مجهودات شيخ الهند لتحقيق الوحدة الإسلامية.	٥٢
٧	الفصل الثاني: الإسلام وحب الوطن كما مارسه شيخ الهند.	٦٤
٨	الفصل الثالث: نظرية شيخ الهند بخصوص العلمانية والتعايش السلمي.	٧٥
٩	**الباب الثالث: مساهمة شيخ الهند في استقلال الهند.**	٨٣
١٠	الفصل الأول: دور العلماء في مقاومة الاستعمار البريطاني.	٨٤
١١	الفصل الثاني: مجهودات شيخ الهند في الحرية والاستقلال.	٩٧
١٢	الفصل الثالث: حركة "ريشمي رومال" (خطة الرسائل الحريرية) ودورها في تحرير الهند.	١١١
١٣	الخاتمة	١٢١
١٤	المراجع والمصادر	١٢٦
١٥	المحتويات	١٣١

Jawaharlal Nehru University Library

Shaikh Al-Hind MAHMOOD AL-HASAN AL-DEOBANDI

Wa Mauqifuhu Min Al-Iste'mar Al- biritani Min Khilale Aa'malihi

Dirasah Tahliliyah

(Shaikh Al-Hind Mahmood Al- Hasan Al-Deobandi and His stand on British Imperialism through his works An Analytical Study)

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirements for the award of degree of Master of Philosophy

By

MERAJ AHMAD

Supervisor

PROF. S. A. RAHMAN

Center of Arabic & African Studies
School of Language, Literature & Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi

2005